أفاق الثقافة الموسوعية والأدبية
في
كتابي البيان والتبيين للجاحظ الكامل للمبرد

(دراسة تحليلية موازنة)

دكتور

وجيهة محمد المكاوي

دراسات إسلامية وعربية جامعة الأزهر السادات

أفاق الثقافة الموسوعية والأدبية
في كتابي البيان والتبيين للجاحظ الكامل للمبرد
دراسة تحليلية موازنة

دكتور
وجيهة المكاوي
قسم الأدب والنقد ،كلية الدراسات الإسلامية والعربية
بالسادات ، جامعة الأزهر ،جمهورية مصر العربية
drwageha12@gmail.com

الملخص:

زخر تراثنا بمؤلفات أدبية نقدية تدل على القريحة العربية الصافية، والعقلية الفكرية الموسوعية منها البيان والتبيين للجاحظ، الكامل في اللغة والأدب.. للمبرد وقد عرضت لهما في هذا البحث موضحة أوجه الاتفاق والاختلاف، ومنهجية العرض والملاحظ أن تلك الحقبة كانت تمور بصفوة الأدباء والنقاد الذين كانت لهم اسهامات شيقة وساهموا في وضع اسس وقواعد النقد، وللجاحظ والمبرد كتب عدة ملئت بفكرهم المستنير؛ وعكست عقليتهم الموسوعية من هذه الكتب؛ هذان الكتابان فقد جمعا فنوناً أدبية كثيرة وقد صار البحث كالأتى: توطئة: أضواء على حياة الجاحظ، الفصل الأول: من قضايا البيان والتبيين البيان والبلاغة – الخطب – نماذج من الوصايا والرسائل – مختارات شعرية.

الفصل الثاني: توطئة: أضواء على حياة المبرد ،من قضايا، الكامل البلاغة – التشبيه

الأساليب العربية السرقات الشعرية – الحكمة، الفصل الثالث: موازنة بين الكتابين ٠

الكلمات المفتاحية: الثقافة– الموسوعية– أفاق–الأدبية– الجاحظ – المبرد٠

The horizons of encyclopedic and literary culture inWritten
Statement and statement to Gahez
El Kamel to Al Mobared.
Balancing analytical study

Wajeha Al-Makawi
Department of Literature and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies in Sadat, Al-Azhar University, Egypt.
Email: drwageha12@gmail.com

Abstract
Our heritage is filled with critical literary works that indicate the pure Arab qur'an, and the intellectual mentality encyclopedic of it.

Statement and demonstration of protruding, full in language and literature. For the cooler and I have been presented to them in this research explaining the aspects of agreement and difference, and the methodology of the presentation and notice that that era was passed on the elite of writers and critics who had made interesting contributions and contributed to the establishment of the foundations and rules of criticism, and for the protruding and coolant several books filled with their enlightened thought; These two books have collected many literary arts, and the research has become like:

Stepping up: Spotlight on the life of the protégé Chapter1: Issues of statement and identification Statement and rhetoric - speeches - examples of commandments Letters - Poetry Anthology

Chapter2: Preface: Highlights of the Life of the Radiator, From The Case Full eloquence. Arab Methods Poetic Thefts - Wisdom

Chapter3: Balancing the Two Books.

Keywords: encyclopedic - literary- culture- horizons -AL-Gahez- Al Mobared

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين أفضل من نطق بالضاد صلى الله عليه وسلم، وبعد.

زخر تراثنا العربي بمؤلفات أدبية نقدية تدل على القريحة العربية الصافية، والعقلية الفكرية الموسوعية منها:

البيان والتبيين للجاحظ، الكامل في اللغة والأدب.. للمبرد وقد عرضت لهما في هذا البحث موضحة أوجه الاتفاق والاختلاف، ومنهجية العرض والملاحظ أن تلك الحقبة كانت تمور بصفوة الأدباء والنقاد الذين كانت لهم اسهامات شيقة وساهموا في وضع أسس وقواعد النقد، وللجاحظ والمبرد كتب عدة ملئت بفكرهم المستنير؛ وعكست عقليتهم الموسوعية من هذه الكتب؛

هذان الكتابان قد جمعا فنوناً أدبية كثيرة وقد صار البحث كالآتي:

توطئة: أضواء على حياة الجاحظ

الفصل الأول: من قضايا البيان والتبيين

البيان والبلاغة: الخطبة

الخطبة: نماذج من الوصايا

والرسائل: مختارات شعرية

الفصل الثاني:

توطئة: أضواء على حياة المبرد

من قضايا الكامل (البلاغة – التشبيه – الأساليب العربية)

السرقات الشعرية الحكمة

الفصل الثالث: موازنة بين الكتابين

الخاتمة – أهم النتائج – أهم المصادر والمراجع

توطئة عن كتابي
البيان والتبيين – الكامل في اللغة والأدب

في منتصف القرن الثاني الهجري زخر العصر بآثار ومؤثرين أفذاذ، كان وجودهم وقودًا محركًا للحياة الفنية، والثقافية، والفكرية، ثم صارت آثارهم نبراسًا يلتف حوله الأفذاذ، ويضيء الطريق للآتين بعده، وتلك الآثار اختلفت في مآثرها نتيجة لاختلاف مدتها، وحق لها أن تختلف فمؤلفيها مختلفي العقليات، والثقافات، والإدراك، وإن كان هناك إطار عام من نحو البحث في الأدب والبيان في عرض كلي وجزئي، والتعلق أو التعليق عليه وعلى ما يعلق به بسبب..

ولقد اخترت من كتب التراث كتابي البيان والتبيين، والكامل في اللغة والأدب للجاحظ والمبرد ففي البيان كشف عن الأدب وفنونه، وأعلامه، بشكل موسوعي يعكس عقل راجح وفكر مستنير والإلمام بثقافة العصر على المحيطين العربي وغير العربي.

لذا فالبيان يعد(موسوعة كبرى للأدب والبيان، وليس فيه من وجوه النقص إلا ما فطن إليه أبو هلال قديمًا، وأن ما فيه من الأفكار والدراسات البيانية لا يدرك إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير – على حد قول د بدوى طبانة[1] والكامل في اللغة والأدب حوى بذور النقد النحوي والصرفى، كذلك زخر بفنون الأدب، ولكنه لم يك يعرضها بشكل إحصائي، وإنما نتف متفرقة،

(١) البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب صـ ١١١ د/ بدوي طبانة – مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة ٢٤ .

وغلب على الكتاب الرواية، والنقد والموازنة، وقد حوى نظرات عميقة تدل على وعي شديد، إذ أفاض في موضوعات بلاغية منها التشبيه والكناية.

وإذا كان الجاحظ واسع الثقافة وبدت تلك الثقافة في أنه (لم يترك موضوعاً نقديًا إلا نبه عليه، ويمتاز هذا التيار بالاهتمام بالصور البيانية، لم يك ذلك منه لمجرد الذوق، ولكن المنهجية التى فرضتها استمال الناس)[1] إلا من التزم بعمود الشعر. وكلاهما أكثر من الحديث في المسائل البلاغية.

(١) النقد عند العرب أصوله قضاياه صـ٢٦٤ د/ حفني محمد شرف – مكتبة الشباب .

الفصل الأول

البيان والتبيين – الجاحظ [1]

أضواء على حياة الجاحظ:

الجاحظ: ١٥٠ – ٢٥٥ عاش فى القرن الثاني الهجرى وتقلبت أمامه كثير من الأحوال، وشاهد اختلافاً كثيراً حدث فى الفكر والعقيدة، ومنهج الحياة، وحباه الله بعقلية راجحة، وفكر صائب، وملكة قادرة على الرصد والإحصاء، ثم التدريب والتبويب، وضم الشيء وشبيهه وقرن الِإلف بالإلف.

وهو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، أشهر أدباء القرنين الثاني والثالث الهجريين، وأوسعهم ثقافة، لقب بالجاحظ لجحوظ عينيه.

ولد في البصرة من بيت فقير ومات أبوه وهو صغير. فقامت على تربيته أمه، نشأ ميالاً للعلم لكن عوزه دفعه إلى امتهان بيع الخبز والسمك بـ"نهر سيحان" بالبصرة نهاراً، واكتراء دكاكين الوراقين يبيت فيها ليلاً، للنظر والقراءة، وخالط المسجديين واختلف إلى الكتاتيب.وكان فكهًا لسنًا

وتلقي عن العلماء، والأدباء، والشعراء، والنحاة، والرواة واللغويين العلم والأدب، ثم يترك البصرة إلى بغداد عاصمة الخلافة، وتابع درسه هناك فى مجالس أعلام العلماء، فأخذ اللغة عن أبي عبيده، والأصمعي، والأخفش، وأبي

(١) البيان والتبيين أبي عثمان بن بحر الجاحظ ، ت . و شرح عبد السلام هارون مكتبه الخانجى ٢٠٠٣ أربعة أجزاء . تناولت كتب كثيرة حياة الجاحظ منها : العصر العباسي ومنها البيان العربي د بدوى طبانة ١٠٥، دراسة في تطور الفكرة البلاغية عد العرب ط٤ مكتبة الأنجلو ١٩٦٨، وفي كتاب الفن ومذاهبه في النثر العربي دشوقي ضيف ط ٦ دار المعارف : أنه ولد ١٥٩

زيد الانصاري، تلقى المنطق والكلام عن النظام.فقد كان الجاحظ (رجلاً خصب القريحة لا يعيبه الموضوع، ولا يثقل عليه المحتوى أيًا كان نوعه)[1]

وبعد أن أنس من نفسه القدرة على الكتابة راح يروض قلمه، فكتب في بعض أبواب الأدب، ولم يجد قبولاً لدى المتلقين استهوانًا بشأنه فاضطر إلى نشر كتاباته منسوبة إلى أعلام الكتاب، السابقين، والمعاصرين له، كابن المقفع، وسهل بن هارون، فأقبل عليها المتلقين بل كانوا يحضرونها له ليستنسخها لهم وتقام حولها المناقشات فوجد في تقبل الناس لهذه الكتب المنسوبة إلى أولئك الكتاب علامة على امتلاكه ناصية الكتابة، فأصبح ينشر كتبه، ورسائله معلناً أنه مؤلفها.

وكان من تلك الكتب المبكرة كتابٌ في الإمامة قرأه المأمون فاستدعاه ونصبه رئيساً لديوان الرسائل، ولكنه استعفى من عمله هذا بعد ثلاثة أيام فأُعفي. واستكتبه المأمون رسالة عن أحقية العباسيين في الخلافة، وبعد وفاة المأمون لازم الجاحظ وزير المعتصم ا بن عبد الملك الزيات؛ فعاش فى كنفه رضي البال ينفق عن سعة وينصرف إلى التأليف. ويرحل إن شاء فرحل إلى دمشق وانطاكية.

جمع الجاحظ بين العلم والأدب، فكان ملماً بجميع معارف عصره من لغة، وشعر، وأخبار، وعلم كلام، وتفسير، وطبيعة. وقد كان كاتباً متكلماً معتزلياً، بل كان رأس طائفة من المعتزلة عرفت بالجاحظية. وكان ناقداً اجتماعياً عارفاً بخفايا مجتمعه وفئاته.

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب صـ ٨٥ – د / إحسان عباس– ط دار الشروق ١٩٩٣ .

وتعد كتبه ورسائله وثائق يمكن الاعتماد عليها في معرفة جوانب المجتمع فى عصره. وكان زاده فى كل هذا معرفته الواسعة، وملاحظاته الفاحصة، والتجربة أحياناً. مما يقربه من المنهجية العلمية. فقد اشتهر بالشك بوصفه الطريق إلى اليقين، واشتهر بفضوله المعرفي كذلك بتجربته لفروضه. (لا يستطيع أحد إنكار فضله في تاريخ النقد العربي ووضع أصوله، فلم ينس المفاضلة بين الشعراء ولا الطبع والتكلف ولا الالفاظ والمعاني ولا العاطفة، ولا أولية الشعر والتوليد فيه، ولكنه تجنب الولوج إلى مقياس موضوعي عام، وعباراته في وصف مذاهب الشعراء عبارات أدبية) (١)

وقد أحاط بالمعارف المنتشرة آنذاك العربي منها والفارسي والهندى والروماني واليوناني مما أمده بزاد وافر من الطرف المنوعة التى تنثال على يراعه حين كتاباته.

عرف أسلوبه بإيقاعاته، وقصر عباراته، واستطراداته، مع روح ساخرة سخرت من كل أشكال القبح فى عصره حسياً كان أو معنوياً، وأوتى مقدرة بيانية مكنته من مدح الشيء وذمه. برصد مزاياه وحشد عيوبه.

ويرى مؤرخو البلاغة العربية أنه مؤسس الدرس البلاغي، بما عالجه من موضوعاته، وأرساه من مصطلحاته. وقد ترك الجاحظ مكتبة ضخمة من الكتب، والرسائل.

وعرفه ابن كثير قائلاً (٢) الجاحظ المتكلم المتعزلي، وإليه تنسب الفرقة الجاحظيه لجحوظ عينيه، ويقال له الحدقي، وكان شنيع المنظر، سيء المخبر،

(١) النقد الأدبي عند العرب أصوله قضاياه تاريخه صـ٢٩٦ .

(٢) –البداية والنهاية ابن كثير جـ ١١ طبعة دار التأليف الإسلامية .

ردئ الاعتقاد، ينسب إلى البدع والضلالات، وربما جاز بـه بعضـهم إلـى الانحلال حتى قيل فى المثل: يا ويح من كفره الجاحظ. وكان بارعًـا متقنًـا لعلوم كثيرة، وصنف كتباً جمة تدل على قوة ذهنه وجودة تصرفه. ومن أجل كتبه الحيوان، البيان والتبيين، قال" ابن خلكان" وهما أحسن مصـنفاته، وقـد أطال ترجمته بحكايات ذكرها عنه، وذكر أنه أصابه الفالج فى آخر عمـره، وحكى عنه أنه قال: أنا من جانبي الأيسر مفلوج لو قرض بالمقـاريض مـا علمت، وجانبي الأيمن منقرس لو مرت به ذبابه لآلمتني، وعنـدى حصـاة، وأشد ما على ستة وتسعون سنه، وكان ينشد:

أترجـو أن تكـون وأنـت شـيخ كمـا قـد كنـت أيـام الشـباب

لقـد كذبتك نفسـك ليس ثوب دريـس كالجديـد مـن الثيـاب

وقد تعرض الجاحظ لكثير من القضايا والعديد من الموضوعات منها مـا سرده شرحاً، وتفصيلاً، ومنها ما اكتفي بالإشارة لها دون ذكر التفاصيل ومن قضايا البيان والتبيين: اللفظ والمعنى، التعظيم من الصياغة، قضية البلاغـة، الصدق اللغوي، الخطبة، نماذج مـن الوصـايا والرسـائل، وغيرهـا مـن الموضوعات..

.**منهج البيان والتبيين**: إن الناظر في كتاب البيان والتبيين يجد صـعوبة في تحديد منهجه فرغمًا عن قدمه، إذ يعد من أقـدم الكتـب التـى تناولـت الموضوعات الأدبية والنقدية وما يمت إليها من قول أو عمل: بلاغـة؛ لغـة؛ تاريخ، أو طرائف ألقيت فيه ــ

تلك المعارف وهذه الفنون بلا تنظيم أو تبويب فقد يضم الإلف إلي إلفـه بل نجد كل منهما في مكان متباعد من الأخر.

يقول د محمد زغلول سلام (كان الجاحظ يعمد في كتبه إلي مزج الفكاهة بالجد، فيخرج بالقارىء من ملل إلى انتعاش، وهو يسوق إليه النادرة في طي الكلام ليرفه عنه، ويجدد نشاطه ويبعث الحياة من جديد في ذهنه) [١]

والكتاب يفتقد المنهج العلمي من حصر الموضوع، وعرض أجزاءه، وتسليط الضوء على كل جزئية حتى تستوفى فقد غاب عن الكتاب ولعل ذلك يرجع إلي شخصية الجاحظ؛ فهو موسوعي الثقافة موفور المعرفة ما يكاد يعرض لموضوع ما حتى تنثال عليه المعارف والمعلومات فيثبتها كيفما اتفق بلا تنظيم أو استيفاء، بل يغلب عليه الاستطراد؛ وقد عد البعض ذلك ميزة لأعماله (تمتاز كتبه كذلك بتنوع الموضوع والاستطراد والخروج من معنى إلي أخر في كثير من التشوق والإمتاع وإن بدا في نظر بعض المعاصرين تشعيثًا في الأفكار واضطرابًا في المنهج) ثم يردف (كتبه ورسائله على أية حال رياض للنفوس، وواحات للعقول تستجم بها وتتزود بعديد من المعارف وفيها رياضه للفكر فيما يشغل بال الناس في عصره من قضايا سياسية وعقدية ودينية أو اجتماعية أو أدبية)[٢]

وهو في بيانه قد يعرض لجزئية ثم ينطلق لأخرى، ويعقب بثالثة، ثم يعاود إلى جزئيته الأولى، يقف وراء ذلك ثقافة معرفية ومخزون شعرى مُؤَيد، إذ يؤيد كلامه بما يعلم من أخبار وأشعار وأحداث لذا زخر الكتاب (بفنون القول من الرسائل والخطب والأشعار والأخبار، وأبان عن رأيه فيها، وما قيده

(١) دراسات في الأدب العربي العصر العباسي د، د محمد زغلول سلام صـ٤٥٥ ، منشأة المعارف

(٢) دراسات في الأدب العربي العصر العباسي صـ ٤٥٦

مما يحفظ ويروى من أقوال الرواة والمحدثين، حتى وصفه أبو هلال العسكري بأنه أكبر كتب البلاغة وأشهرها، وبأنه كثير الفوائد جم المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة، والخطابة، وغير ذلك من فنونه المختارة، ونعوته المستحسنة) [1]

وعلى عقلانية هذا الرأي إلا أني أرى أن الكتاب يفتقد الهيكل التنظيمي لما ثُبِتَ به، وكأنه يطير من زهرة ثم يحط على زهرة أخرى. فرحابة عقله، وعظم خبرته، واتساع ثقافته، دفعت الأفكار لتتزاحم على قلمه إبَّان ثبت مُؤَلفه فأثبت ما جال بفكره واستدعاه عقله في كل جزئية، وقد إزدان كتابه بآراء النقاد والأدباء، وعلماء اللغة، والرواية، فأُثري بكثير من الآراء و الأفكار.

وقد تحدث في بيان " الأدب" الأسباب التى علت به وما حواه من عناصر جمالية، أو ما أوهنه من عوائق هبطت به فسربت إعجاب المتلقين، وأفقدته اللذة الفنية أو القيادة الجماهيرية أو توجيهه نحو ما يريد. وكما تحدث عن ألأدب المنُشأ تحدث عن الأديب المُنشِيء: صفاته الشخصية، وكيف اثرت على مجاله الإبداعي.

١. **هدف تأليف كتاب البيان:** الكتاب عند الجاحظ محدد الهدف فهو راغب في الإبانة والإفهام وإماطة اللثام، لذا فدلائل المعاني عند الجاحظ خمسة أشياء **(اللفظ – الإشارة– العقد – الخط – النُصبة)، وهذا الرأي** يوقع في خلط لأن تلك الأمارات والدلائل لا تحتاج إلى الوزن الشعري، أو التبصر في اختيار اللفظ فلا ينتخب إلا سهل المخرج، جيد السبك، حسن التصوير، وذلك

(١) دراسات في نقد الأدب العربي – د بدوي طبانة – صـ ١٧٨

من ضوابط جودة الشعر التي قننها الجاحظ، فإن كان الغرض الإبانة والإفهام فلا ضير عن تخلفها عن القول، انتصر الجاحظ للصنعة –الشكل – وهـذا انتصار ينضوي على التفضيل بين الوسائل الأدائية أو التعبيرية، فـإذا كـان العلماء والفلاسفة يولدون المعاني ويبتكرونها؛ فإن ميدان الآداء والتعبير عنها بإجادة رسالة الأدباء إذ تظهر ثقافتهم اللغوية وقدرتهم التعبيرية، فالمتلقي يسمع الإبداع وكأنه يسمعه لأول مرة، و ورغمًا عن ذلك –تأييده للشكل بتزييناته– إلا أنه التزم المنهج النبوي وفر من سجع الجاهلية، وكره التشـادق. وعنـى بإبراز المعنى، فرسالة المبدع هى التى تضفي على المتحَدث عنـه الجمـال والفنية وإن خلا منهما، ولا شك أن المعنى له تاثير كبير في إضفاء الجمـال الآلق على العبارة.

فالمعنى المنتخب يتم وفق ثقافة الكاتب، تلك الثقافة التي كونت من انتمائه البيئي، ومواهبه الخاصة – الغريزة – التي قادته إلي امتلاك ملكات قويـة أو وهنة.. وقد تقبل علماء البلاغة والأدب كلام الجاحظ عـن قضـية اللفـظ والمعنى ما بين مؤيد ومعارض، فمنهم من وافقه في تأخر أهمية المعنى عن أهمية اللفظ، مثل "أبي هلال العسكري"، "ابن رشيق القيرواني"، " ضياء الدين بن الأثير"، ومنهم من رأى أن المعنى هو (السيد) والألفاظ خدم له " الجرجاني العلوي" وكثير من الأمم والأفراد أولوا عناية كبيرة بالأسـلوب كاليونـانيين والرومانيين "" ومن أدباء الفرنجة من دافع عن الصنعة، على نحو الجـاحظ، فمن كلام "فولتير" أن الأشياء تؤثر فينا في الأغلب من نواحي أساليبها، أى من نواحي القوالب التي تصب فيها، لأن للناس افكارًا واحدة بوجه التقريب، ولكن

الأسلوب هو الذي يخلد الكاتب إنما هو جمال الأسلوب ومن كلام " فـرانس" ليس الفكر ملكًا لمن يبدعه، وإنما هو ملك الذي يثبته في الأذان "[1]

من قضايا البيان والتبيين

تناول الكتاب قضايا كثيرة، وعرضها بأسلوب جذاب، فالمادة الأدبية التى تشع من البيان والتبيين ثرة خصبة فى نفسها؛ وفى أثرها على المتلقي، وكانت شديدة التأثير على الخلف من بعده، فتناولوا الكثير من القضـايا التـى وردت بمؤلف الجاحظ فى مؤلفاتهم، إطناباً تارة وإيجازاً أخرى، فالمبرد قد تعـرض لكثير من القضايا التى وردت فى البيان فى الكامل.

هذا وقضايا البيان والتبيين عديدة، وموضوعاته متنوعة فقد تحدث عن:

١. البيان والبلاغة، القواعد البلاغية، القول فى مذهب الوسيط، الخطابة، الشعر، السجع، الوصايا، والرسائل طائفة مـن كـلام النسـاك والقصـاص، وأخبارهم، عرض البيان لبعض كلام النوكى والحمقى، ونوادرهم، ضـروب من الاختيارات البلاغية. قضية اللفظ والمعنى....

وقد يتبادر إلى الذهن سؤالان: لماذا عرضت لهذه الموضـوعات بصـفة خاصة على رغم ثراء هذه المؤلفات بالعديد مـن الموضـوعات، ومختلـف المباحث... وعلى الرغم أن ما جاء بها ورد فى كل كتب التراث تقريباً مـع الاختلاف فى طريقة العرض والتناول ولأجيب على هذين السؤالين أقول اولاً:

تخيرت هذه الموضوعات فقط..... لقوة صلتها بالأدب ووثاقة علاقتها به أكثر مما عداها من الموضوعات التى وردت فى الكتب، والتي قد تلامس مادة التاريخ أو الاجتماعيات أو غيرها من الموضوعات أكثر مـن مـادة الأدب،

(١) الجاحظ معلم العقل والأدب ، شفيق جبري صـ ٢٢٠

إضافة إلى ما امتاز به الأديبان الجاحظ والمبرد؛ من فكر موسوعي، وطريقة عرض شائقة.

فالجاحظ [١] أديب لا يشق له غبار أمتاز بعقلية فذة ظهرت آثارها في مؤلفاته.

والمبرد [٢] لغوى شهير يسيطر التقييم اللغوي على عرضه، فحين يتناول موضوعاً أدبياً، نجد منهجه اللغوي ومعلوماته الممتدة الجذور المتشابكة بالجانب اللغوي الصرفي والنحوي تبرز جلية. وهو ابن عصره خاض في القضايا التي تناولها نقاد عصره لكن معالجته اتسمت بالصبغة اللغوية.

وقد تأثر الأدباء بالجاحظ، ومؤلفاته، فله ظلال فى كثير من المؤلفات بشكل مباشر أو غير مباشر، بل سواء تحدث عن ذلك الأدباء من بعده أو لم يتحدثوا فلبيانه وتبيينه خيوط سميكة وظلال واضحة فى تلك المؤلفات.

البيان والتبيين.... يقع فى أربعة أجزاء تعرض الجاحظ لأكثر القضايا التصاقاً بالأدب واقتراناً بموضوعاته وهي قضايا البيان والبلاغة، والدلالات البيانية الدالة عليها، وصحة الإعراب اللحن، والحروف ومخارجها، والخطبة وأورد كثير من الخطب لشخصيات وعصور مختلفة، وغيرها من الموضوعات المتعلقة بالبيان سلباً أو إيجاباً، مع الاستشهاد بالأمثلة والإكثار منها، كذلك الخطب وأشهر الخطباء، صفاتهم وطريقتهم، والكهانة وأثرها؛ كذلك تحدث عن الشعر وبيَّن فضله، وسر الاهتمام به، والسجع والموقف منه قبولاً أو رفضاً، كذلك الرسائل والوصايا وأثرها في البيان العربي، وأخبار

(١) – الجاحظ ولد ١٥٠ – ٢٥٥ ه.

(٢) – المبرد ولد ٢١٠ – ٢٨٦ ه.

النساك والقصاص والحمقى... وسر اختياره النوكي والحمقى قد تقع منهم رمية من غير رام؛ فيصيبون الأدب بحسن التعبير وجميل التعليل بالإضافة إلى الأشعار الجميلة المنوعة [(١)] التي نثرها الجاحظ في ثنايا كتابه، مختارات فريدة فى موضوعات متعددة،تدل علي رجاحة العقل وصواب الفكر،..... وسأعرض نتفاً من الكتابين ولا شك لن يكون هناك تماثل في العرض بل سيختلف طبقا لاختلاف المعروض " ولكل زمان ضرب من المصلحة ونوع من المحنة وشكل من العبادة " [(٢)]

اللفظ و المعنى: أولى الجاحظ للشكل – اللفظ – عناية فائقة في تقييم وتقدير العمل الفني، سواء أنحى به مقدمه منحٍ فنيًا أو علميًا، فالمعانى خفية مكنونة لا تظهر ولا تتضح إلا بإبانة صاحبها لها، فبصبها في لفظ يزول الإبهام، ويقيد المطلق، ويظهر الخفي، ويحل المنعقد، (وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، أو كانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجع، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه)[(٣)]

فالمعول عليه عند الجاحظ حسن العرض، أى الشكل، فالتقييم للمنجز الأدبي بقدر ما انكفئ على حسن العرض وابتكار الصورة، وطرافتها حاز

(١) – قام عبد السلام هارون بعرض موجز لمحتويات الكتاب فى تسع صفحات تقريباً أشار فيها للموضوعات وأماكن تواجدها فى الكتاب وبالأجزاء الأربعة

(٢) – البيان والتبيين جـ ١ صـ ٧ .

(٣) المرجع السابق جـ١ صـ ٧٥

الإعجاب، وحصد الثناء، واستتبع هيُامه بالشكل عنايته بالمزينات له، وعلى رأسها البديع فعنى بالبديع بأقسامه، وتميز اللغة العربية بوجود البديع، والخطبة فيها

(والجاحظ لم يذهب إلى استحسان الألفاظ في أي مكان من كتبه إلا لأنها تبرز المعاني وتثبتها في الأذهان على طول الزمان [١] يقول الجاحظ:(إن حسن الكلام يزداد كلما كان المعنى أظهر وذلك يدرك بوضوح الدلالة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل [٢]

ولا شك أن اهتمام الجاحظ بحلل الزينة تدل على نظرة فنان لا نظرة عالم فالعالم محصور النظرة محدد الإتجاه، يهدف إلى إبانة المعنى، وإصابة المحز، وقد أرجع الجاحظ التقييم المعتمد للعمل الأدبي للكتاب لا للعلماء لأن لكل عالم مجاله البارع فيه، والأديب المنشيء يقعد الجمال الفني الذى لا يدركه إلا الكتاب، ولا يفطن إليه إلا أهل الصنعة المهتمون بالصورة الفنية، المولعون بإبداعها والتفنن فيها، وقد تبدى احتفاء الجاحظ بالكتاب، إما عن احترام، وإما عن رهبة إذ تسنموا أعلى المراتب في الدولة، والمعانى التى طلبت منهم تفاوتوا في التعبير عنها بتفاوت منهجهم بين إيجاز وإطناب،إرسال وسجع، إسراف واقتصاد، احتفاء أو عطل من البديع.

وقد بادل الكتاب تقدير الجاحظ ومراعاته لمنزلتهم بتقديرهم لإبداعه، وأنزلوه منزلته فأشاعوا (من لم يقرأ كتب الجاحظ ليس جديرًا أن يصل إلى

-(١) النقد الأدبي عند العرب أصوله قضاياه تاريخه صـ ٢٧٧-٢٧٨

(٢) البيان والتبيين جـ ١صـ٤٢

منصب في الدولة أو وظيفة من وظائف الدواوين) وقال الصاحب بن عباد: فلله أبو عثمان !! فلقد غاص في شعر الشعر واستخرج أرق من السحر"[١]

ونسب الخبرة والبصر للشعر بالشعر لأهل الاختصاص خاصة – الكتاب – من جهة الجاحظ وافق فكرة "خلف الأحمر"، و"ابن سلام" لأن (العلماء أعرف بالعلم، والأدباء أعرف بالفن الأدبي وهم أصحاب الرأي فيه) [٢] وقد ألح على تلك الفكرة تفصيلاً الجاحظ فكل باغٍ يبحث عن بغيته (لم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب، ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل.. ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعم، وعلى ألسنة حذاق الشعر أظهر. ولقد رأيت أبا عمر الشيباني يكتب أشعارًا من أفواه جلسائه، ليدخلها في بابا التحفظ والتذاكر)

ولا يوقع عناية الجاحظ بالشكل أنه كان يتخلى عن المضمون وإلا ما نالت كتبه تلك العناية وحازت ذلك الاهتمام لأنه ستكون – في حالة لو لم يك يحتفي إلا بالشكل – جمل متراصة خلبة المظهر وهذا يناقض الواقع فكتب الجاحظ (ذات موضوع قبل أن تكون ذات أسلوب، وليس معنى هذا أنه كان يهمل الفاظه وتراكيبه بل قد كان يعنى بهما معًا عناية شديدة)[٣]

(١) دراسات في نقد الأدب العربي صـ ١٩٠

(٢) دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث ، د بدوى طبانة ، ١٩١ ، مكتبة الأنجلو ، طـ٥

(٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ،د شوقي ضيف ، ص، ١٦٤، دار المعارف طـ٦

- **التعظيم للصياغة:** انبثق عن اهتمام الجاحظ باللفظ اعتناؤه بالصياغة، فقد رأى أنها تساعد على حفظ الأدب وسرعة تنقله من الأفواه إلى الآذان، ويروى الجاحظ قيل للرقاشي " لم تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن ؟ قال: إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك، ولكني أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والآذن لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد، وما تكلمت به العرب، من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره"(١)

- **قضية البلاغة**

أولى الجاحظ المسائل البلاغية عناية خاصة، فقد كانت الشغل الشاغل للأدباء والنقاد آنذاك، وأفاض في الحديث عن البديع وعن لغتنا العربية التي قاربت المتباعدين، ولمت شتات المتنافرين، وزادت وفاق الأُلاَّف والمتشابهين، ورغمًا عن هيامه بالبديع إلا أنه مال إلى البساطة فخير الكلام عنده ما وافق الطبع وبعد عن التكلف ونزه عن الاختلال فإذا تحقق ذلك (صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة، ونفذت من قائلها على هذه الصيغة، أصحبها الله من التوفيق، ومنحها من التأييد ما لا يمتنع معه من تعظيمها صدور الجبابرة، ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة)(٢)

(١) المرجع السابق صـ ١٦٤

(٢) البيان والتبيين ج١ ، صـ٨٣

بلاغة القول عند الجاحظ متناثرة في مؤلفه، فهو لم يقصد إليها وعمد إلى تفصيل أجزائها، وحصر أركانها بعضها إثْر بعض، بل أنها تناثرت بين أجزاء كتابه ضم إليها ما كان له بها صلة قريبة أو بعيدة، بل قد تتداخل بعض الآراء والقضايا البعيدة الصلة بالبلاغة وكان الأجدى لها أن تقع موقعًا آخر غير هذا الموقع... كحديثه عن اللثغة، والحروف التي تدخلها [١]، وحديثه عن ناس من البلغاء والخطباء [٢] وأقوال موجزة تنفر من تكرار الحدث والإعادة [٣] وغيرها من الموضوعات التي أثبتها في تضاعيف حديثه عن البلاغة

وأري أن ذلك التداخل يرجع لسببين

إما أن هذا هو الأسلوب المتبع آنذاك في الحديث عن الموضوع وكل ما اتصل به وإن كان يبدو أنه بعيد الصلة، وذلك أضفي على المؤلفات آنذاك شكلاً موسوعياً، لكن الاسترسال الزائد عند الجاحظ مردود لغزارة معلوماته، وأنه يريد أن يثبت ذلك فى مؤلفه.

أو لتقدم سنه وأنه لم ينقطع للكتابة مرة واحدة فأكثر من الاسترسال والتشعيب في موضوعات كثيرة منها الحمق[٤]، والنوك، والمعلمون وهكذا..

وعنون باباً آخر بعنوان " باب آخر"[٥] تحدث فيه عن الكلام المنمق المهذب وحسن وقعه وجمال منزلته

---

(١)) البيان والتبيين جـ ١ صـ ٣٤ .

(٢)) البيان والتبيين جـ ١ صـ ٩٨

(٣)) البيان والتبيين جـ ١ صـ١٠٥.

(٤)) البيان والتبيين جـ ١ صـ ٢٢٤

(٥) البيان والتبيين جـ ١ صـ ٢٥٤ .

فالقصد في ذلك أن تجتنب السوقي والوحشي ولا تجعل همك في تهـذيب الألفاظ...

قال الشاعر:

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاة؛ ولا تركب ذلولاً ولا صعباً

... وليكن كلامك ما بين المقتصر والغالي فإنك تسلم من المحنـة عنـد العلماء، ومن فتنة الشيطان(١)

افتتح الجاحظ الباب الأول في الجزء الأول بالحديث عن العي والحصر، وحشد الأبيات التي تدل علي أن البيان مزية والعي رزية.

وقال حميد بن ثور الهلالي يمدح أحدهم:

أتانا ولم يعدله سحبان وائل بياناً وعلماً بالذى هو قائل

فما زال عنه اللقم حتى كأنه من العى لما أن تكلم باقل(٢)

وقد تدخل هنا الجاحظ بالتوضيح فقال:

سحبان.. مثل في البيان، وباقل.. مثل فى العي واسترسل في إيراد الآيات القرآنية التي تدل علي عظم فضل الإبانة، وعلي جسامة الابتلاء بالعي. ثم بعد ذلك أخذ في الإفصاح عن رأيه في هذه القضية بالتفصيل فقال: " وليس، حفظ الله مضر سلاطة اللسان عند المنازعة، وسقطات الخطل يوم إطالة الخطبـة، بأعظم مما يحدث عن العى من اختلال الحجة، وعن الحصر من فـوت درك الحاجة، والناس لا يعيرون الخرس، ولا يلومون من استولي على بيانه العجز.

(١) البيان والتبيين جـ ١ صـ ٥

(٢) البيان والتبيين جـ ١ صـ ٦ .

وهم يذمون الحصر، ويؤنبون العيي، فإن تكلفا مع ذلك مقامات الخطباء، وتعاطيا مناظرة البلغاء، تضاعف عليهما الذم وترادف عليهما التأنيب. ومماتنة العيّ الحصر للبليغ المصقع، فى سبيل مماتنة المنقطع المفحم للشاعر المفلق[١] وأحدهما ألوم من صاحبه، والألسنة إليه أسرع.

وليس اللجلاج والتمتام والألثغ والفأفاء وذو الحبسة والحكلة والرتة[٢] وذو اللفف والعجلة [٣] فى سبيل الحصر فى خطبته والعيى فى مناضلة خصومه كما أن سبيل المفحم عند الشعراء والبكئ عند الخطباء خلاف سبيل المسهب الثرثار والخطل المكثار.

ثم أعلم – أبقاك الله – أن صاحب التشديق والتقعير والتقعيب [٤] من الخطباء والبلغاء مع سماحة التكلف، وشنعة التزيد، أعذر من عيى يتكلف الخطابة، ومن حصر يتعرض لأهل الاعتياد والدربة ومدار اللائمة ومستقر المذمة، حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف، وبياناً يمازحه التزيد، إلا أن تعاطي الحصر المنقوص مقام الدرب التام أقبح من تعاطى البليغ الخطيب، ومن تشادق الأعرابى القح وانتحال المعروف ببعض الغزارة فى المعانى والألفاظ وفى التحبير والارتجال أنه البحر الذى لا ينزح والغمر الذى لا يسبر

(١) ماتن فلان فلاناً إذا عارضه فى جدل أو خصومة

(٢) الحكله:شبهة العجمة لا يبين صاحبها الكلام. والرتة عاجل في الكلام وقلة أناة

(٣) رجل ألف ، أي عيى بطئ الكلام إذا تكلم ملأ لسانه فمه

(٤) التقعير أن يتكلم بأقصى قعر فمه . والتقعيب فى الكلام كالتقعير فيه

أيسر من انتحال الحصر المنخوب أنه فى مسلاخ التام [١] المـــوفر والجـــامع المحكك[٢]

فالجاحظ هنا بسط القضية وذكر تفاصيلها والتمس العذر لمن ابتلى بهاتين الخلتين لكنه يعيب علي صاحبهما أن يدعي البلاغة وأن يتكلف الخطابة.... ثم أسترسل في الحديث حتي وصل إلي الحديث عن اللثغة[٣] ولثغة واصل بـــن عطاء وفصاحته وبداهته في تفاديها وذكر الحروف التي تدخلها اللثغة، وفـــي طي ذلك تعرض للحديث عن الألفاظ السيارة المتداولـــة وكيـــف أن النـــاس يكثرون من ذكر الخفيف في النطق وإن كان غير فصيح؛ علي الثقيل الأفصح بل قد يخلعون من المعاني علي الألفاظ المختلفة عنها في الدلالـــة استســـهالاً واعتيادا، ثم تحدث عن البلاغة وقال أنها تعني الإبانـــة والإفهـــام وإيصـــال المعني.

" قال أبو عثمان[٤]: والعتابي حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه، بالكلام الملحون، والمعدول عن جهته، والمصروف عن حقه، أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان، بعد أن قد فهمنا معني كلام النبطي الذي قيل له: لم اشتريت هـــذه الأتان ؟ قل: " أركبها وتلد لى " وقد علمنا أن معناه كان صحيحاً.

---

(١) المنخوب: الجبان الضعيف القلب . والمسلاخ ، الجلد أراد أنه فى هيئته ومنزلته

(٢) البيان والتبيين جـــ ١ صـــ ١٢ .

(٣) البيان والتبيين جـــ ١ صـــ ٣٤

(٤) البيان والتبيين جـــ ١ صـــ ١٦١ : ١٦٢ .

وقد فهمنا قول الشيخ الفارسى حين قال لأهل مجلسه: " ما من شر من دين " وأنه قال حين قيل له: ولم ذاك يا أبا فلان ؟ قال: " من جرَّى يتعلَّقون " وما نشك أنه قد ذهب مذهباً، وأنه كما قال

وقد فهمنا معني قول أبي الجهير الخراسني النخاس، حين قال له الحجاج: أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان ؟ قال: "شريكاننا فى هوازها، وشريكاننا فى مداينها. وكما تجئ نكون " قال الحجاج: ما تقول، ويلك ! فقال بعض من قد كان اعتاد سماع الخطباء وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك: يقول: شركاؤنا بالأهواز وبالمدائن، يبعثون إلينا بهذه الدواب، فنحن نبيعها على وجوهها. وقلت لخادم لي: فى أى صناعة أسلموا هذا الغلام ؟ قال: " فى أصحاب سند نعال"(١).

وكذلك قول الكاتب المغلاق للكاتب الذى دونه: " اكتب لي قل خطين وريحنى منه ".

فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معني القائل، جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب، والإغلاق والإبانة والملحون والمعرب، كله سواء، وكله بياناً. وكيف يكون ذلك كله بياناً، ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام، لما عرفه. ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذي فينا.

وهذا يتوافق مع القواعد التى تعارف عليها أهل البيان من شروط موضوعة للمتحدِث، وشروط للحديث.

(١) – يريد أصحاب النعال السندسية .

فالجاحظ قد تداول قضية البلاغة وعرض رأيه فيها وحشده بما يؤيده من جيد الشعر والنثر وربما رافقه من آي كتاب الله، أوسنة رسوله، وإذا أورد مثالاً صعباً ألقي عليه الضوء الخافت من التفسير اللغوي أو الصرفي.

الصدق اللغوي: هذا التعبير أعتقد أنه يتوافق تمامًا مع ما دعى إليه الجاحظ فقد دعى الجاحظ الأدباء إلى التعبير عما يريدون مستخدمين اللغة الواقعية في حياتهم، فلا يتحدث البدوي بلغة الحضري، ولا المتأخر بلغة المتقدم.، وإذا كان لكل فئة لغتها؛ فلغة السوْقة غير لغة الأدباء، فالوحشي من الناس يفهم لغة الوحشي من الكلام، والمألوف يستوعب المعروف، ورطانة السوْقي يفهمه السوْقة، وإذا كان الناس طبقات فإن طرق آدائهم، وتعابيرهم طبقات، فهناك الخفيف و الثقيل، السمج، والقبيح، والحسن، الجزل والخفيف، وإذا كان الكلام يتوافق مع الناس في تصنيفه إلى طبقات؛ فكذلك هو صناعات، فلكل طائفة لغتها التي يجب أن يستعملها أهلها ولا يحيدون عنها إلى غيرها، فلأهل الكلام قاموسهم اللغوي، كذلك لأهل كل صناعة... يستخدمها المتكلم فيفهم ويُفْهم.

وأقر الجاحظ بأسس للأساليب الجيدة، والأسلوب يحكم عليه بإجادة ثلاثة مرعيات – مراعاة المخاطب – مراعاة الموضوع –المعنى –

مراعاة المخاطب: عناية المتكلم الإفهام، أو التأثير ويحصل هذا إذا ما عرف المخاطب خواص تكوينه، لينزله منزلته الثقافية، فيحدد له لغة الخطاب التى تنجح معه وتبلغه مأربه.

مراعاة الموضوع: للموضوعات الأدبية طرائق أدائية تختلف عن الموضوعات العلمية، ولكل منها ألفاظ يستحب استخدامها فيها، ولا تستحب

لأخرى، بل إن لكل قوم مفرداتهم اللغوية التى يستحبون استعمالها أكثر من غيرها. فمهما تكن ثقافتهم ومعارفهم يؤثرون بعض الكلمات على غيرها، ويتعارفون بمصطلحات حكر عليهم، فهي تبلغ المراد عن طريق اختزال كثير من المعاني في طيها فأهل الموضوع الواحد هُدُوا إلى الطيب من القول، وهو معبر كافٍ لا يحيدون عنه لأنه يبلغهم مبلغهم،

مراعاة المعنى: رأى الجاحظ أن اللفظ يدور مع المعنى. فاللفظ السمج يحط على المعنى السمج، وكذلك اللطيف والسخيف، فالمعنى يحمل يصبه في اللفظ المشاكل له، ولا بد من مراعاة السياق.

يقول الجاحظ(إن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني، وقد يحتاج إلي السخيف في بعض المواضع، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل و الفخم من الألفاظ، والشريف الكريم من المعانى، كما أن النادرة الحارة جدًا. وإنما الكرب الذي يختم على القلوب، ويأخذ بالأنفاس، النادرة الفاترة التى لا هي حارة ولا باردة كذلك الشعر الوسط، والغناء الوسط،وإنما الشأن في الحار جدًا والبارد جدًا)[١]

(كان يحس أن المعنى موجود، في كل مكان، وما على الأديب إلا أن يتناوله، ويصوغه صياغة منفردة) [٢]

أولى الجاحظ الأدب أهمية عظمى، فرغمًا عن اهتمامه بالأديب وما يتعلق به من ثقافة، وبيئة وقدرات أدائية إلا أنه نظر للمُقَيِّم (الأديب) فأعلى قدر الأدب الجيد غاضًا للنظر عن عصر قائله، أهو من القدامى أم من

(١) البيان والتبيين جـ ١ صـ ١٦١ : ١٦٢ .

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب صـ ٧٨.

المحدثين، ورأى أن الرواة قد صنعوا الإبداع وفق الأزمنة فما تقدم فهو المتقدم فالجاحظ ذو نظرة توفيقية.

- **الخطابـــة**

وفى حديثه عن الخطب نثره ايضاً بين ثنايا الكتـــاب حيـــث بـــين هيئـــة الخطيب [١] وأورد الأبيات التى كانت تتردد بكثرة على ألسن بعض خطبائهم ورأى الجاحظ أن من الكلام على الخطابة الحديث عن الصوت وجهارتـــه[٢] وأورد أبياتاً تدل على تشادقهم فى الكلام واستحسانهم له، وتفضيلهم للفم الكبير وذمهم للفم الصغير.

وتطرق لغيرها من الموضوعات، ثم عرض خطبة من خطب الرســـول ﷺ [٣]) ثم ذكر أسماء الخطباء والبلغاء والأنبياء وذكر قبائلهم[٤].

وفى الجزء الثاني ذكر خطبة حجة الوداع للرسول ومنها:

" قالﷺ: الحمد لله، نحمده ونستعينه ونتوب إليه، نعوذ بالله مـــن شـــرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فى هـــادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـــه، وأشـــهد أن محمـــداً عبـــده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، واستفتح بالذى هو خير " [٥]

---

(١) – البيان والتبيين جـــ ١ صـــ ١٦١ : ١٦٢ .

(٣) البيان والتبيين جـــ ١ صـــ ٣٠٢ .

(٤) البيان والتبيين جـــ ١ صـــ ٣٠٦

(٥) البيان والتبيين جـــ ٢ صـــ ٣١ .

فالخطبة كانت الدستور النهائي الذي وضع للأمة المحمدية وتسير عليه للآن، ولم يعقب عليها الجاحظ ثم ذكر خطبه على بن أبي طالب منها: " أما بعد فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت بإطلاع. وإن المضمار اليوم والسباق غداً. ألا وإنكم فى أيام أمل من ورائه أجل، فمن أخلص فى أيام أمله قبل حضور أجله (فقد) نفعه عمله ولم يضرره أمله، ومن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله، فقد خسر عمله، وضره أمله، ألا فأعملوا لله فى الرغبة، كما تعملون له فى الرهبة. ألا وإنى لم أر كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها. ألا وإنه من لم ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لم يستقم به الهدى يجر به الضلال ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن، ودللتم على الزاد وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل "[1]

وعلى الرغم مما حوت الخطبة من جليل وصايا، وعظيم نفع،إلا أنه لم يعقب عليها، واكتفى بإيرادها فى كتابه، كذلك فعل حينما أورد خطبة عبد الله ابن مسعود [2] وخطبة عتبة ابن غزوان ولكنه حينما أورد خطبة معاوية عقب عليها ويحرص الجاحظ على توثيق سند الخطبة قائلاً:

" رواها شعيب بن صفوان، وزاد فيها البقطري وغيره، قالوا: لما حضرت معاوية الوفاة قال مولي له: من بالباب ؟ قال: نفر من قريش يتباشرون بموتك. فقال: ويحك، ولم ؟ قال: لا أدرى؟ قال: فو الله ما لهم بعدى إلا الذي يسوؤهم ؟ وأذن للناس فدخلوا فحمد الله وأثني عليه وأوجز ثم قال:

(١) البيان والتبيين جـ ٢ صـ ٥٢ : ٥٣ .

(٢) البيان والتبيين ج٢ صـ٥٦

أيها الناس، إنَّا قد أصبحنا فى دهر عنود [١] وزمن شديد يعد فيه المحسن مسيئاً، ويزداد فيه الظالم عتوا، ولا ننتفع بما علمناه ولا نسأل عما جهلناه، ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا، فالناس على أربعة أصناف: منهم من لا يمنعه الفساد فى الأرض، إلا مهانة نفسه، وكلال حده، ونضيض وفره [٢] ومنهم المصلت لسيفه، المجلب، بخيله ورجله، والمعلن بسره، قد أشرط لذلك نفسه [٣]) وأوبق دينه، لحطام ينتهزه، أو مقنب يقوده، أو منبر يفرعه [٤] ولبئس التجر أن تراها لنفسك ثمناً، ومما لك عند الله عوضًا، ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن من شخصه، وقارب من خطوه، وشمر من ثوبه، وزخرف نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية، ومنهم من أقعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه، وانقطاع من سببه، فقصرت به الحال عن أمله فتحلي باسم القناعة، وتزين بلباس الزهادة،وليس من ذلك في مراحل ولا مغدى، وبقى رجال غض أبصارهم ذكر المرجع، وأراق دموعهم خوف المحشر، فهم بين شريد ناد وخائف منقمع،وساكت مكعوم، وداع مخلص، وموجع ثكلان قد أخملتهم التقية، وشملتهم الذلة، فهم فى بحر أجاج؛ أفواهم ضامرة، وقلوبهم قرحة، قد وعظوا حتى ملوا، وقهروا حتى ذلوا، وقتلوا حتى قلوا، فلتكن الدنيا فى عيونكم أصغر من حثالة القرظ، وقراضة الجملين، واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من يأتي بعدكم،

(١) العنود : الجائر الطاغى .

(٢)) النضيض : القليل : والوفر : المال

(٣) أشرط نفسه للأمر : أعدها وهيأها . والإشراط : الإعلام بعلامة

(٤) يفرعه : يعلوه .

فارفضوها ذميمة، فإنها رفضت من كان أشغف بها منكم. ثم بعد ذلك عقب الجاحظ قائلاً:

وفى هذه الخطبة أبقاك الله ضروب من العجب: منها أن الكلام لا يشبه السبب الذي من أجله دعاهم معاوية، ومنها أن هذا المذهب فى تصنيف الناس، وفى الإخبار عما هم عليه من القهر والإذلال، ومن التقية والخوف. أشبه بكلام على رضي الله عنه ومعانيه وحاله منه بحال معاوية؛ ومنها أنا لم نجد معاوية فى حال من الحالات يسلك فى كلامه مسلك الزهاد، ولا يذهب مذاهب العباد وإنما نكتب لكم ونخبر بما سمعناه والله أعلم بأصحاب الأخبار وبكثير منهم.

فالجاحظ...قد رأى استحالة موقف معاوية بعد أن كان شغوفاً بالدنيا متمسكاً بها صار زاهداً نابذاً لها، وعلى رغم ما في الخطبة من أوجه بلاغية متعددة، ونصح خارج من نفس أبلت الأمر واختبرته، وحسن تقسيم فى تصنيف الناس أربعة أصناف، وإرشاد لما ينبغي فعله، وما يجب تركه، وغيرها إلى أن الجاحظ لم يعقب عليها باستفاضة، ربما مرجع ذلك إلى الرغبة فى التخفيف والميل إلى التبسيط لأنه قال بعد ذلك: " قال أبو عثمان: قد ذكرنا من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطبه صدراً، وذكرنا من خطب السلف رحمهم الله جملاً، وسنذكر من مقطعات الكلام، تجاوب البلغاء، ومواعظ النساك، ونقصد من ذلك إلى القصار دون الطوال، ليكون ذلك أخف على القارئ، وأبعد من السآمة والملل، ثم نعود بعد ذلك إلى الخطب المنسوبة

إلى أهلها إن شاء الله. ولا قوة إلا بالله " [١] وحينما أورد خطبة الحجاج لأهل العراق [٢] شفعها برد قطرى بن الفجاءة ولم يعقب عليها [٣]

وقد يضع الجاحظ عنواناً ما.. وتحت هذا العنوان كثير من الحكم والوصايا مثل " باب من الخطب القصار، من خطب السلف ومواعظ من مواعظ النساك، وتأديب من تأديب العلماء [٤]

(قال: قال قتادة: لو كان أحد مكتفياً من العلم لا كتفي نبي الله موسي عليه السلام، إذ قال للعبد الصالح (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا). و أبو العباس التميمى قال: قال طاوس

" الكلمة الصالحة صدقة ".

وقال ثمامة بن عبد الله بن أنس، عن أبيه (عن جده) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " فضل لسانك تعبر به عن أخيك الذي لا لسان له صدقة ".

وقال الخليل: " تكثر من العلم لتعرف، وتقلل منه لتحفظ ".

وقال الفضيل: " نعمت الهدية الكلمة من الحكمة، يحفظها الرجل حتى يلقيها إلى أخيه ".

وكان يقال: يكتب الرجل أحسن ما يسمع ويحفظ أحسن ما يكتب.

وكان يقال: أجعل ما فى كتبك بيت مال، وما فى قلبك للنفقة

---

(١) البيان والتبيين جـ ٢ صـ ٦٦ .

(٢) المرجع السابق ج ٢صـ٣٠٧

(٣) المرجع السابق جـ ٢ صـ ٣١٠ .

(٤) البيان والتبيين جـ ٢ صـ ٣١٠ .

وقال أعرابي: حرف فى قلبك خير من عشرة فى طومارك

قال: عمر بن عبد العزيز: " ما قرن شيء إلى شيء أفضل من حلم إلى علم، ومن عفو إلى قدرة ".

وكان ميمون بن سياه، إذا جلس إلى قوم قال: إنا قوم منقطع بنا، فحدثونا أحاديث نتجمل بها.

قال: وفخر سليم مولي زياد، بزياد عند معاوية فقال معاوية: اسكت فو الله ما أدرك صاحبك شيئاً بسيفه، إلا وقد أدركت أكثر منه بلساني، وضرب الحجاج أعناق أسرى، فلما قدموا إليه رجلاً لتضرب عنقه قال: والله لئن أسانا فى الذنب فما أحسنت فى العفو ! فقال الحجاج: أف لهذه الجيف، أما كان فيها أحد يحسن مثل هذا الكلام ! وأمسك عن القتل.

فالجاحظ يعمد إلي حشد الأخبار التي التى تعلي من شأن الفصاحة، وتدريب اللسان على القول المُفْهِم المبين.

وقد ورد كثير من الوصايا متناثر فى آخر باب " فى صفة الرائد للغيث، وفى نعته للأرض، حيث ورد فى آخر هذا الباب بعض الوصايا منها.

(قال: وتنقص ابن لعبد الله بن عروة بن الزبير عليًا رحمه الله، فقال له أبوه: والله ما بني الناس شيئاً قط إلا هدمه الدين، ولا بني الدين شيئاً فاستطاعت الدنيا هدمه، ألم تر إلى على كيف يظهر بنو مروان من عيبه وذمه ؟ والله لكأنما يأخذون بناصيته رفعاً إلى السماء. وما ترى ما يندبون به موتاهم من التأبين والمديح ؟! والله لكأنما يكشفون عن الجيف.

أبو الحسن قال: قال عبد الله بن الحسن، لابنه محمد، حين أراد الاستخفاء.

" أي بني، إني مؤد إليك حق الله فى حسن تأديبك، فأد إلي حق الله فى حسن الاستماع. أي بني، كف الأذى، وارفض البذا، واستعن على الكلام بطول الفكر فى المواطن التى تدعوك فيها نفسك إلى القول، فإن للقول ساعات يضر فيها خطاؤه، ولا ينفع صوابه. احذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً، كما تحذر مشورة العاقل إذ كان غاشاً، فإنه يوشك أن يورطاك بمشورتهما، فيسبق إليك مكر العاقل وتوريط الجاهل ". وكان يقال: من لانت كلمته وجبت محبته، ومن طال صمته اجتلب من الهيبة ما ينفعه، ومن الوحشة ما لا يضره)[1] ولكن الرسائل لا تظهر جلية واضحة فى أجزائه الأربعة مثل الوصايا، ربما لأن الرسائل لم تك متداولة بكثرة مثل الوصايا التى اعتاد المعنييون

- **نماذج من الوصايا والرسائل**

دارت الوصايا على لسان ذوى العقول والنظر، وهي تعكس فكر راجح، ونظر دأب، نتج عنه قول صائب مختصر قلد فى جيد الزمن، وبقى مع كر الليل والنهار.... وهو كعادته لم يفرد له باباً أو جزءاً خصه به، وأورد فيه مادته تباعاً بل أنه أطلق على مادته

" الوصايا " . ففى الجزء الأول أورد خبراً (وقال بعض الربانيين[2] من الأدباء وأهل المعرفة من البلغاء ممن يكره التشادق والتعمق ويبغض الإغراق

(١) – البيان والتبيين جـ ١ صـ ١٧٣ : ١٧٤

(٢) الرباني : العالم الراسخ فى العلم ، أو العالم العامل المعلم " الديانين " والديان : الحاكم والقاضي .

فى القول، والتكلف والاجتلاب[1]، ويعرف أكثر أدواء الكلام ودوائه، وما يعترى المتكلم من الفتنة بحسن ما يقول، وما يعرض للسامع من الافتتان بما يسمع، والذي يورث الاقتدار من التهكم والتسلط، والذي يمكن الحاذق والمطبوع من التمويه للمعاني والخلابة، وحسن المنطق، فقال فى بعض مواعظه: " أنذركم حسن الألفاظ، وحلاوة مخارج الكلام، فإن المعني إذا اكتسي لفظاً حسناً وأعاره البليغ مخرجاً سهلاً، ومنحه المتكلم دِلا متعشقاً، صار فى قلبك أحلى، ولصدرك أملا والمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة، وألبست الأوصاف الرفيعة، تحولت فى العيون عن مقادير صورها، وأربت على حقائق أقدارها، بقدر ما زينت، وحسب ما زخرفت، فقد صارت الألفاظ فى معاني المعارض وصارت المعاني فى معني الجوارى، والقلب ضعيف، وسلطان الهوى قوى، ومدخل خدع الشيطان خفى " فاذكر هذا الباب ولا تنسه ولا تفرط فيه، فإن عمر بن الخطاب –رحمه الله– لم يقل للأحنف بن قيس – بعد أن احتبسه حولاً مجرماً، ليستكثر منه وليبالغ فى تصفح حاله، والتنقير عن شأنه: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان خوفناً كل منافق عليم وقد خفت أن تكون منهم " إلا لما كان راعه من حسن منطقه، ومال إليه لما رأى من رفقه، وقلة تكلفه، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن من البيان لسحرا " وقال عمر بن عبد العزيز لرجل أحسن فى طلب حاجة، وتأتى لها بكلام وجيز، ومنطق حسن:

" هذا والله السحر الحلال ". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا خلابة ".فالقصد فى ذلك أن تجتنب السوقي والوحشي، ولا تجعل همك في

(١) الاجتلاب : أن يجتلب معاني وساه لفقره فى معانيه

تهذيب الألفاظ، وشغلك في التخلص إلى غرائب المعـــانى،. وفـــي الاقتصـــاد بلاغ، وفى التوسط مجانبة للوعورة، وخروج من سبيل من لا يحاسب نفســـه وقد قال الشاعر:

عليـك بأوسـاط الأمـور فإنهـا نجاة، ولا تركب ذلولاً، ولا صعباً

وقال الآخر:

لا تـــذهبن في الأمـــور فرطـــا لاتســـألن إن ســـألت شـــططا

وكن من الناس جميعاً وسطا

وليكن كلامك ما بين المقصر والغالي، فإنك تسلم من المحنة عند العلماء، ومن فتنة الشيطان)[1]

فهو هنا قد تدخل بتفسير وإيضاح، مشفوعاً بوصية تدل علـــى حذقـــه الكلام وفهمه، واستجلاء غامضة، وتبين مبهمة، وقد قرن كلام البلغاء بالحديث الشريف والشعر الجليل.... ثم أورد قائلاً

" وقال أعرابي للحسن: علمني دينا وسوطًا، لا ذاهبـــاً شـــطوطًا ولا هابطًا هبوطًا. فقال له الحسن: لئن قلت ذاك إن خير الأمور أوساطها وجـــاء فى الحديث: " خالطوا الناس وزايلوهم "

وقال على بن أبى طالب رحمه الله: " كن فى الناس وســـطاً وامـــش جانباً ". وقال عبد الله بن مسعود فى خطبته: " وخير الأمور أوساطها، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى. نفس تنجيها، خير من إمارة لا تحصيها ". وكانوا يقولون: اكره الغلو كما تكره التقصير.

(١) – البيان والتبيين جـــ ١ صـــ ٢٥٤ : ٢٥٥ .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه: " قولوا بقولكم ولا يستحوذن عليكم الشيطان "

وكان يقول: " وهل يكب الناس على مناخرهم فى نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم. [(١)] والملاحظ أنه قد يجمع الوصايا في مكان واحد وقد تأتي متناثرة في كتابه

- **مختارات شعرية**

إن الجاحظ بعقله الواعي، وفكره الصائب، انتخب بعض الأبيات التى تحمل قيمًا ومعاني رأى أنها جديرة بالإثبات فى كتابه فأوردها منها: [(٢)]

ورب أمور لا تضيرك ضيرة وللقلب من مخشاتهن وجيب [(٣)]

وقال حارثة بن بدر:

وقل للفؤاد إن نزا بك نزوة من الروع، أفرخ، أكثر الروع باطله

وقال لبيد بن ربيعة:

واكذب النفس إذا حدثتها إن صدق النفس يزرى بالأمل

وقال حبيب بن أوس:

وطول مقام المرء فى الحى مُخْلِق لديباجته فاغترب تتجدد

---

(١) – رواه أحمد والترمذي وابن ماجه .

(٢) البيان والتبيين جـ ٢صـ ١٨٦ : ١٨٧ .

(٣) المخشاة : الخوف والخشية –الوجيب :الاضطراب والخفقان .

فإني رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وقال غيره:

هو الشمس إلا أن للشمس غيبة وهذا الفتى الجرمى ليس يغيب

يروح ويغدو ما يفتر ساعة وإن قيل ناء فهو منك قريب

وقال آخر:

خلافًا لقولى من فيالة رأيه كما قيل اليوم: خالف فتذكرا

وقد يثني الأبيات الشعرية بكلمات نثرية بليغة دون أن يعقب عليها. " وقال عمرو لمعاوية: من أصبر الناس ؟ قال: من كان رأيه رادًا لهواه

واختلفوا بحضرة الزهرى فى معني قول القائل: فلان زاهد. فقال الزهرى " الزاهد الذي لا يغلب الحرام صبره، ولا الحلال شكره "

وقال ابن هبيرة وهو يؤدب بعض بنيه: لا تكونن أول مشير، وإياك والرأى الفطير، وتجنب ارتجال الكلام، ولا تشر على مستبد، ولا على وغد، ولا على متلون ولا لجوج، وخف الله فى موافقة هوى المستشير، فإن التماس موافقته لؤم، وسوء الاستماع منه خيانة.

وقالوا. من كثر كلامه كثر سقطه، ومن ساء خلقه قل صديقه، وقال عمر للأحنف: من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر مزاحه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قلَّ ورعه، ومن قلَّ ورعه ذهب حياؤه، ومن ذهب حياؤه مات قلبه.

وقال المهلب لبنية: يا بني تباذلوا تحابوا، فإن بني الأم يختلفون فكيف بنوا العلاتى، إن البر ينسأ فى الأجل، ويزيد فى العدد، وإن القطيعة تورث القلة،

وتعقب النار بعد الذلة. واتقوا زلة اللسان، فإن الرجل تزل رجله فينتعش، ويزل لسانه فيهلك. وعليكم فى الحرب بالمكيدة، فإنها أبلغ من النجدة، فإن القتال إذا وقع وقع القضاء، فإن ظفر فقد سعد، وإن ظفر به لم يقولوا فرط.

ولقى "الحسين" رضى الله عنه الفرزدق، فسأله عن الناس؟ فقال: القلوب معك، والسيوف عليك، والنصر فى السماء.

٥-**النقد الأدبي:** تحدث الجاحظ عن النقد والقائم به وهل من حق الجمهور النقد أم لا ؟.

وإذا ما أورد خبرًا فلم يطمئن إليه، ذكر أسباب ذلك وبرره كما أورد الخطبة المنسوبة إلي معاوية عند وفاته، ومطلع هذه الخطبة

(أيها الناس إنا قد أصبحنا في دهر عنيد، وزمن شديد، يعد فيه المحسن مسيئًا، ويزداد فيها الظالم عتوا، ولا ننتفع بما علمناه ولا نسأل عما جهلناه ولا نتخوف قارعة تحل بنا، فالناس على أربعة أصناف) [١] فالجاحظ ركب الصعب وحاول كشف حقيقة الخطبة أهي لعلي أم إلى معاوية وساق الحجج في ذلك وكان (ينقض هذا التمحيص والفحص أن يأتي الجاحظ بنماذج من خطب علي ونماذج من خطب معاوية حتى نتبين بعد أن الخطبة أليق بكلام أحدهما، لأن لكل خطيب أو شاعر أو كاتب مفردات ومصطلحات وتراكيب لا يحيد عنها) كذلك هناك التباس في دلالة بعض الكلمات التي يستخدمها الجاحظ مثل(الغريزة- التكلف – البيان) فقد توسع في دلالتها (والمثال على عدم استقرار هذه المعاني الاصطلاحية عنده استعمالاته المتعددة لكلمة بيان في كتابه البيان والتبيين، فمرة يستعملها في مقابل العي،، وتارة يستعملها بمعنى

(١) البيان والتبيين ج ٢ صـ ٥٩

سلامة النطق، وحسن تأدية الحروف [١]، وحينًا يستعملها بمعنى الفهم والإفهام، وفي المعنى الذى استعمله القرآن من إظهار الضمير والتعبير عما في النفس في قوله تعالى(الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان) ومرة يستعملها بمعنى البلاغة) [٢]

الواقعية: نقل الواقع بلغته وصوره بلا تدخل للتحسين ويعد الجاحظ واقعيًا أمينًا إذ ينقل المتحدث عنه.. سواء أكان شخص أم طرفة أم حدث ولا يتدخل، لذا حفل " بيانه " بالحديث عن المتناقضين " الأشرار والأخيار – الأطهار وأصحاب الأوزار –النوكى والأذكياء– السوْقة والملوك–السفهاء والأدباء– الأمراء والخدم –فهو واقعي حتى في حديثه عمن لا يستحب وينقل أفعال وأقوال (أهل الغفلة من النوكى والحمقى)[٣] وهو ينتخب اللفظ المعبر دون الركون إلى التزيين بالتشبيهات (فالكتابة عنده ليست زخرفًا خالصًا يراد به الوشي والحلي،وما يندمج في ذلك من صور وتشبيهات واستعارات، بل هى معان تؤدى في دقة، تفسر الوقائع والأحداث تفسيرًا لا تستره أسجاف الاستعارات والأخيلة. وليس معنى ذلك أن الجاحظ لم يكن دقيق التصوير، فإنه إنما عزف عن الأخيلة. لما تضع أمام القارىء من مبالغات، أما بعد ذلك فإنه كان مصورًا عظيمًا إذ كان يعرف كيف ينقل المشاهد بجميع تفاصيلها ودقائقها تسعفه في ذلك قدرة غريبة على الملاحظة)[٤]

---

(١) المرجع السابق ج١ صـ ٨

(٢) النقد الأدبي عند العرب صـ ٢٨٤

(٣) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٢٥– ٣٤٤

(٤) الفن ومذاهبه في النثر العربي ، شوقي ضيف صـ ١٦٤ .

تاريخ:أرخ الجاحظ لكثير من الأحداث والشخصيات، كل ذلك متزيا بالزي الأدبي مابين رسائل: رسالة إبراهيم بن سابيه إلي يحي بن خالد بن برمك [١] رسالة عمر إلي أبي مو سي الأشعري [٢] وخطب: مثل: خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣] وخطبة علي بن أبي طالب [٤] وغيرها بل إنه تغور في التاريخ فأوردإنطاق الله عزوجل لإسماعيل بالعربية،كذلك هناك موضوعات غير معنونه سماها (أخلاط من شعر ونوادر وأحاديث) [٥]

وقد تحدث الجاحظ فى كثير من الأشياء، وسير الكثير من الأشخاص لكنني اقتصر على هذه الموضوعات (البلاغة، الخطابة، الوصايا، الرسائل، المختارات الشعرية،) لأنها وردت فى الكامل.

(١) البيان والتبيين ج ٣ صـ٢١٥،
(٢) المرجع السابق ج٢ صـ ٤٦
(٣) المرجع السبق ج٢ صـ٣١
(٤) المرجع السابق ج٢ صـ٥٠
(٥) المرجع السابق ج٣ صـ٢٠٣

الفصل الثاني
الكامل فى اللغة والأدب

أضواء على حياة المبـــرد... محمد بن يزيد المعروف بـــالمبرد[1] إمـــام نحاة البصرة فى عصره وإليه انتهي علم العربيـــة... بـــين طبقـــة الجرمـــي والمازني؛ ولد بالبصرة سنه ٢١٠ هـــ وطلب العلم صغيراً وتلقى على أعلام البصرة النحو واللغة والتصريف، فأخذ عن المازنى والجرمي وقرأ عليهمـــا كتاب سيبويه، وأخذ عن أبي حاتم السجستانى ونبغ واشتهر أمره بإقراء كتاب سيبويه وهو غلام، فقد روى أن شابا من أهـــل نيســـابور أتـــي أبـــا حـــاتم السجستاني، فقال له يا أبا حاتم إني قدمت بلدك – وهو بلد العلـــم والعلمـــاء وأنت شيخ هذه المدينة، وقد أحببت أن أقرأ عليك كتاب سيبويه، فقال: الـــدين النصيحة إن أردت أن تنتفع مما تقرأ فاقرأ على هذا الغلام محمد بـــن يزيـــد وكان يقول لمن يريد أن يقرأ عليه الكتاب.

هل ركبت البحر تعظيماً له واستصعاباً لما فيه

وظل بالبصرة حتى سنه ٢٤٦ ففى هذه السنة ورد مدينة سُرّ مَـــنْ رَأَيَ بطلب من الخليفة المتوكل فحضر مجلسه ونال عطاياه، ولما قتل المتوكل سنه ٢٤١ رحل إلى بغداد واتصل بالأمير محمد بن عبد الله الطاهر فأكرمه وسبب له أرزاقاً، على عمال مصر وكانت أرزاق الندامى تجرى عليهم من هنـــاك. وتوفى ببغداد سنه ٢٨٥ه ودفن بمقبرة باب الكوفة فى دار اشتريت له. اختلفوا

(١) – عن كتاب الكامل ت . محمد أحمد الدالى – مؤسسة الرســـالة ط٢ ســـنه ١٩٩٣ ، وكتاب دراسات في نقد الأدب العربي ٢٣٣ بتصرف

فى سبب تسميته المبرد وهل الراء مفتوحة أم مكسورة... وسنة ولادته ووفاته.

قال ابن جني يعد جبلاً فى العلم وإليه أفضت مقالات أصحابنا وهو الذي نقلها وقررها وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها.

وقال الأزهري: كان أعلم الناس بمذاهب البصريين فى النحو ومقاييسه. قال أبو بكر بن مجاهد ما رأيت أحسن جواباً من المبرد فى معاني القرآن فيما ليس فيه قول لمتقدم، ولقد فاتني منه علم كثير لقضاء ذمام ثعلب وكان بين المبرد وأبى العباس ثعلب ما يكون بين المتعاصرين من المنافسة والمنافرة، أوردت المصادر طرفاً من ذلك وما قيل فيه، ولكل منهما شعراء ينتصرون لصاحبهم، وكان المبرد يحب الاجتماع بثعلب للمناظرة، وثعلب يكره ذلك وسئل أبو عبد الله الدينوري ختن ثعلب: لم يأب ثعلب الاجتماع بالمبرد ؟ فقال لأن المبرد حسن العبارة، حلو الإشارة، فصيح اللسان، ظاهر البيان، وثعلب مذهبه مذهب المعلمين، فإذا اجتمعا فى محفل حكم للمبرد على الظاهر إلى أن يعرف الباطن. وقال الإمام الأزهري وهو يفاضل بين ثعلب والمبرد؛ كان محمد بن يزيد أعذب الرجلين بياناً واحفظهما للشعر المحدث، والنادرة الطريفة، والأخبار الفصيحة، وكان أعلم الناس بمذاهب البصريين فى النحو والقياس(١).

(١) – تهذب اللغة للأزهري صـ ٤٣جـ ١ ط دار الكتب العلمية .

وكان المبرد لغويًا أريبًا قال عنه الزبيدي في معجم الشعراء [1] لم يكن أبو العباس محمد بن يزيد على رئاسته وتفرده بمذهب أصحابه وإربائه عليهم بفطنته وصحة قريحته، متخلفاً فى قول الشعر، وكان لا ينخل ذلك ولا يعزى إليه ولا يرسم نفسه به وله أشعار كثيرة. وقد أتاح له إطلاعه الواسع على مختلف مناحي الثقافة العربية من لغة وشعر ونثر، وأخبار، وصرف، وعروض أن يصنف عدداً من المصنفات فى هذه الفنون بيد أن كثيراً منها لم ينته إلينا

منها احتجاج القرآن – الاختبار – أدب الجليس – أسماء الدواهي عند العرب – إعراب القرآن وغيرها.

وللكامل أهمية عظمى حتى قيل أصول الأدب وأركانه أربع دواوين

أدب الكاتب ابن قتيبه – الكامل للمبرد – البيان والتبين للجاحظ – النوادر لأبي على القالي وغيرها توابع لها.

ولقد قدم له المبرد قائلاً " هذا الكتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منثور، وشعر مرصوف، ومثل سائر، وموعظة بالغة، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة " وهذا كتاب بليغ وإذا كانت البلاغة " القول السديد المعجب الذى ينصر صاحبه فى الأزمات ويأخذ بيده فى سائر الاحوال والمقامات، فإن الادب هو مجال القول وموطن الكلام الذى به يرتفع الانسان

(١)– معجم الشعراء للمرزباني صـ ٤٠٥ – ٤٠٦ تحقيق فاروق أسليم ، عبدالستار فراج –ط دار صادر ط١ ٢٠٠٥ م .

وينصت له أو يوضع ويشاح عنه [1] تلقى العلم عن طريق مجموعة من أئمة العلم فى مصر منهم: أبان بن رزين البصرى – إبراهيم بن محمد التيمى – أحمد بن طيفور – القاضي إسماعيل بن اسحاق – التوزى أبو محمد عبد الله بن محمد – الجاحظ أبو عثمان بن بحر– الرياشى أبو الفضل العباس بن الفرج.... وغيرهم.... وأخذ عنه العلم كثير من العلماء منهم:

إبراهيم بن محمد بن العلاء الكلايزى... أحمد بن جعفر الدينوري ختن ثعلب... أبو أحمد الجريرى.. الأخفش وهو راوية كتاب الكامل وله عليه تعليق.. ابن أبي الأزهر محمد بن زيد.

وكان فصيحاً بليغاً مفوهاً ثقة فيما ينقله إماماً فى العربية غزير الحفظ والمادة صاحب نوادر وطرافة، وقد تبوأ مكانة عظيمة بين أئمة العرب.

قال عنه مستمليه "ابن أبي الأزهر": كان من العلم، وغزارة الأدب، وكثرة الحفظ، وحسن الإشارة، وفصاحة اللسان، وبراعة البيان وملوكية المجالسة، وكرم العشرة، وبلاغة المكاتبة، وحلاوة المخاطبة وجودة الخط، وصحة القريحة، وقرب الإفهام، ووضوح الشرح، وعذوبة المنطق على ما ليس عليه أحد ممن تقدم أو تأخر.

منهج الكامل... ولم يوضح المبرد المنهج الذي سيتبعه فى الكتاب فى المقدمة الموجزة التى قدم بها لكتابه فى صدر الكتاب، إذ أشار المبرد إلى مادة كتابه وتنوعها " ما بين كلام منثور، وشعر مرصوف، ومثل سائر، وموعظة بليغة، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة " ولم يزد فيوضح

(١)) سوانح وآراء فى الأدب والأدباء د / بدوى طبانه صـ ٢٨٧ الشركة المصرية العالمية للطباعة والنشر ١٩٩٧ .

العصر الذي سيلقي الضوء عليه بكثافة أكثر من الآخر، أو الشعراء والكتاب ممن سيورد أقوالهم أكثر من غيرهم، أو الحوادث والأحداث اجتماعية، سياسية، دينية، سيركز عليها فلم يشر لذلك كله واكتفي بإيضاح هدفه " أن نفسر كل ما وقع فى هذا الكتاب من كلام غريب، أو معني مستغلق، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً وافياً.... " دون أن يزيد على ذلك.

تعرض المبرد لقضايا لغوية كثيرة تناثرت في ثنايا كتابه، فهو لم يفرد لها مكاناً محدداً، وإنما جاءت ضمن الموضوعات التي تعرض لها فقد يورد بيتاً شعرياً وبه كلمة عربية فيبدأ فى الشرح اللغوي والتحليل الصرفي لها، ويستشهد بشواهد متعددة من القرآن والسنة والشعر تؤيد وجهة نظره.

الهدف من تأليفه حدد المبرد في صدر كامله هدفه من تأليفه إذ أراد أن يضم فيه ضروبًا من الشعر والنثر يقوم بشرحها وبيان إعرابها، وشرح ما يتعلق بها فلا يحتاج أحد إلي تفسير ما جاء فيها أو تبيانه لكنه انتصر للقديم وشغف به وجعله القاعدة، وهو في نقده قد يميل إلي تكوين صوتي أيضًا إذ يأتي نقده في عبارات قصيرة مركزة يقول: (ومما يُفضل لتخلصه من التكلف، وسلامته من التزيد، وبعده من الإنتقال قول أبي حية النميري [1]

(١) .... الكامل ج١ صـ٣٠

من قضايا كتاب الكامل في اللغة والأدب

تكلم المبرد في كامله عن موضوعات كثيرة ومتعددة منها:-

كان المبرد موسوعي المعلومات، أدبي الأسلوب، لغوي الثقافة،.. لذا حينما تعرض لكتابة كتابه، كان لديه مددًا موفورًا من المعلومات الأدبية والأسلوبية واللغوية التي صبغت كتابه ومهرة ثقافته بأنها ثقافة عربية تليدة فهو يميل للتليد أكثر من الحديث؛ إذ جعل التليد مقياسًا للإبداع فما وافقه فهو مُبْدَع؛ وما خالفه فهو دونه، وطرح كثير من الآراء في ميادين شتى منها:-

- **البلاغة بلاغة الكلام:** تحدث عن الكلام سواء حديثاً أم خطبة، رسالة أم كتابة فالجامع بينها أنها عن الكلام.... وصفاً، أم نطقاً، أم كتابة، طريقة المتكلم، وما يستحسن منه، وما يستقبح وغيرها، من الأشياء المتعلقة بالكلام. وقد خلط بين الشعر والنثر في الصفات والمزايا والعيوب،

١. **التشبيه** تحدث عن التشبيه في أماكن عدة، وأورد كثير من الأمثلة التى تدل على أن التشبيه فى كلام العرب سليقة وطبع، وقد علق د/ إحسان عباس علي ذلك وقال كان المبرد " أسبق من أولي التشبيه مثل هذه العناية التفصيلية وبين أقسامه وجعلها أربعة: المفرط، المصيب، المقارب، البعيد الذى يحتاج تفسيرًا، واهتم بتشبيهات المحدثين، خاصة، وأورد منها طرائف وميز أبا نواس بأتساع المذهب في هذا الباب [١]

وهو يعرض البيت الشعرى ويكتفي بكلمات بعده يفسر ما جاء فيه " وأحسن ما قيل في صفة الضلوع واشتباكها قول الراعي

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب صـ ٩٣

وكأنما انتظمت علي أثباجها قدر بشاية قد يمن وعولاً

ويعلق قائلا الغادر المسن من الوعول.

وقد تتبع هذا التشبيه ووجد أن له جذور فقال:

وذو الرمة أخذ ذلك من المثقب العبدى، قال المثقب:

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوه آهه الرجل الحزين

ومن التشبيه المستحسن قول علقمة بن عبدة

كأن أبريقهم ظبي علي شرف مفهدم بسبا الكتان ملثوم

واكتفي بتعليق أنه قال " فهذا حسن جداً [1] فقد مضى على الجانب البلاغي في ومضات سريعة.

٢. **السرقات الشعرية** من القضايا النقدية الهامة التي شغلت المبدعين هل سقط المتأخر على إبداع المتقدم ونسبه إليه ؟ وهل هناك تغيير، وأيهما أبدع منجز المتقدم أم تقليد المتأخر ؟! وقد تحدث عنها المبرد كغيره من النقاد والأدباء في عصره لكن قيل أنه لم يوفيها حقها ولكن برأه د / إحسان عباس من إغفال تلك القضية التى أثيرت فى عصره وقال: (إن الصولى كان مواليا حين وصفه بأنه لا يعرف " استراقات الشعراء ") لأنه نص فى كامله على بعض المعاني المسروقة، يقول:

(١) الكامل للمبرد جـ٣ صـ ٣٢ .

وقول ابن أبي عيينه

أن الليالي والأيام أنفسها لغير أنفسها لم تكتم الخبرا

أخذه أبو تمام فقال:

عمري لقد نصح الزمان وأنه من العجائب ناصح لا يشفق

وقد عرضها المبرد بشكل جيد ويقول إن المبرد فطن للمعاني الأصيلة، ويرجع الجديد لقديمه ويقول " ولا يخفى أن الاهتداء إلى مواضع الأخذ والإحتذاء يعد من أدق ما يفطن إليه النقاد الحاذقون بالأدب وصناعته ونقده... ويقول إن بحث المبرد المستفيض هذا كان أول من فتح باب القول فى هذا الموضوع فولجه من بعده كثير من النقاد فكان بهذا أستاذاً "(١)

وكانت السرقات تشغل الجميع آنذاك فعقب قائلا: "فزاد بقوله ناصح لا يشفق علي قول ابن أبي عيينه شيئاً طريفاً وهكذا يفعل الحاذق بالكلام) (٢) لكن لم يثبت أيهما أبدع وأجود

٣. اللفظ والمعني: لم يتحدث المبرد عن تلك القضية بالتفصيل والتوضيح مثل غيره من النقاد والأدباء، بل ألمح إليها إلماحاً فى تعقيبه علي بعض الأبيات.

" فالشعر لديه مستحسن أحيانا لصحة معناه، وجزالة لفظه، وكثرة ورود معناه بين الناس، أو لقرب مأخذه، أو لسهولته وحسنه، أو لغرابة معناه وجودة

(١) – دراسات فى نقد الأدب العرب صـ ٢٣٤

(٢) الكامل جـ ٢ صـ ١٢ .

لفظه، أو لخلوه من التكلف، وسلامته من التزيد، أما الضرورات اللفظية والالتواء في المعاني واستعمال الكلمات الهجينة فذلك هو ما ينكره ويمقته.(١)

فقد تحدث عن تلك القضية بإيجاز واختصار، شأنه شأن نقاد وأدباء عصره، الذين تحدثوا عن المسائل النقدية، بإيجاز ولم يطيلوا فيها النظر فيكثروا التعقيب

الحكمة... أولى المبرد الحكمة عناية خاصة وجعلها الفئ الذي يستروح فى ظله المتلقي، فبعد كل عدة أبواب نجد باباً للحكم، يتحدث فيه عن حكمة وردت فى قول خليفه أو حكيم، سواء أوردت شعراً أو نثراً.

والفقرة السابقة تدل على حرصه على تفسير العبارة وتوضيح الكلام، والاستعانة فى ذلك بكافة المعينات من آى القرآن الكريم، وحديث الرسول ﷺ، والرجوع إلى الشعر، حيث يعد المبرد إمام الأدباء والبلاغيين فى علاج هذا الموضوع الذي يعد من أهم موضوعات البيان وقد جمع فى هذا الباب بين الرواية والشرح والنقد وساق فيه قدراً كبيراً من النصوص التى ازدانت بفن التشبيه وفسرها ونقدها وبين ما فيها من جمال، فقد درس الأدب العرب، فوجد التشبيه يجرى كثيراً فى كلام العرب حتى لو قال قائل: " هو أكثر كلامهم لم يبعد " (٢)

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب صـ ٩٤

(٢) دراسات فى نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث صـ ٢٣٧ .

ونجد أن الكتاب يحوى حكماً كثيرة معنونه بعنوان باب نبذ من أقوال الحكماء. وهي متناثرة بين ثنايا الكتاب وقد ورد ذلك بكثرة في كتابه مما يضيق المقام عن إثباته (١)

قال أبو العباس: ثم نذكر من كلام الحكماء وأمثالهم وآدابهم صدرا، ونعود إلى المقطعات إن شاء الله (٢)

فهي تدور فى فلك واحد من رأى القدامى فى الشرف والسؤدد، ونسب كل قول لقائله، لكنه لم يعمد إلى التأويل والتفسير باعتبار أن الكلام مفسر واضح إلا فى عبارات قليلة موجزة.

كقوله تأويل المداجاة المداراة، أي لا تظهر لهم ما عندك من العداوة فهي عبارة عن ضوء خافت للتفسير دون إفاضة فى الشرح والتعليل.

يروى عن ابن عمر أنه كان يقول: إنا معشر قريش، كنا نعد الجود والحلم السؤدد، ونعد العفاف وإصلاح المال المروءة.

قال الأحنف بن قيس: كثرة الضحك تذهب الهيبة، وكثرة المزح تذهب المروءة ومن لزم شيئا عرف به.

وقيل لعبد الملك بن مروان: ما المروءة ؟ فقال: موالاة الأكفاء، ومداجاة الأعداء.

وتأويل المداجاة المداراة، أى لا تظهر لهم ما عندك من العداوة، وأصله من الدجى، وهو ما ألبسك الليل من ظلمته.

- (١) الكامل جـ ١ صـ ٤٣ – ٥٦ – ٦٥ – ١٠٧ – ١٤٥ – ١٦٨ – ١٨٩ – ٢١١ – ٢١٥ جـ ٢ صـ ٣٣ – ١٢٤ – ٢١١ .

(٢) الكامل جـ ١ صـ ٤٣ .

وقيل لمعاوية: ما المروءة ؟ فقال: احتمال الجريرة وإصلاح أمر العشيرة فقيل له: وما النبل ؟ فقال: الحلم عند الغضب، والعفو عند القدرة.

وكان أبو سفيان إذا نزل به جار قال له: يا هذا، إنك قد اخترتني جاراً واخترت دارى داراً، فجناية يدك على من دونك، وإن جنت عليك يد فاحتكم علي حكم الصبي على أهله.

وذلك أن الصبي قد يطلب ما لا يوجد إلا بعيداً، ويطلب ما لا يكون البتة قال الشاعر:

ولا تحكما حكم الصبى فإنه كثير على ظهر الطريق مجاهله

وقد يورد الخبر ولا يشفعه بتعقيب مكتفيًا بإثباته وهو كثير منه:

قيل لمعاوية رحمة الله عليه: ما النبل ؟ فقال: الحلم عند الغضب، والعفو عند القدرة.

ظواهر أسلوبية في الكامل

- **الثقافة اللغوية والنحوية والنقدية للمبرد**

تطل علينا الفينة بعد الأخرى الثقافات المختلفة للمبرد فقد يأتى بالخبر ثم يُزيِّلُه بما يؤيد رأيه سواء أكان هذا الرأي يتوافق مع المروي أو يخالفه كما قال: " ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: " ألا أخبركم بشراركم[1] ؟: من أكل وحده، ومنع رفده، وضرب عبده، ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ من لا يقيل عثرة ولا يقبل معذرة، ولا يغفر ذنبا، ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟:" من يبغض

(١) – صحيح مسلم بشرح النووي. وأخرجه الخراط في مساوئ الأخلاق ٩٨– رقم ٢٣٣.

الناس ويبغضونه " ويروى عنه عليه السلام أنه قال: " المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعي بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم والمرء كثير بأخيه"(١).

قول ﷺ: " تتكافأ دماؤهم " من قولك: فلان كفء لفلان، أى عديله، وموضوع بحذائه، قال الله عز وجل: ﴿ ولم يكن له كفوًا أحد ﴾(٢) ويقال: فلان كفاء فلان، وكفئ فلان وكفء فلان

ويروى أن الفرزدق بلغه أن رجلا من الحبطات بن عمرو بن تميم خطب امرأة من بني دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيدة مناة بن تميم، فقال الفرزدق:

بنو دارم أكفاؤهم آل مسمع وتنكح في أكفائها الحبطات

فآل مسمع بيت بكر بن وائل فى الإسلام وهم من بني قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل والحبطات هم بنو الحارث بن عمرو ابن تميم. فقوله: " أكفاؤهم " إنما هو جمع كفء يا فتي، فقال رجل من الحبطات يجيبه.

أما كان عبّاد كفيًا لدارم ! بلى ولأبيات بها الحجرات

يعني بني هاشم من قول الله ﴿:ﷻ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات(٣). فهو هنا في سرد متتابع أورد حديثًا نبويًا، ثم بيتًا شعريًا ثم زاده بأية قرآنية لتفسير كلامه.

---

(١) – سنن ابن ماجة – كتاب الديات .باب المسلمون تتكافأ دماؤهم الجزء الثاني .

٢سورة الإخلاص

(٣) -سورة الحجرات الاية ٤

وقال على بن أبى طالب رحمه الله: من لانت كلمته، وجبت محبته وقال: قيمة كل امرئ ما يحسن.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: ثلاث يثبتن لك الود فى صدر أخيك: أن تبدأه بالسلام، وتوسع له فى المجلس، وتدعوه بأحب الأسماء إليه.

وقال: كفي بالمرء غيا أن تكون فيه خلة من ثلاث: أن يعيب شيئا ثم يأتي مثله، أو يبدو له من أخيه ما يخفى عليه من نفسه أو يؤذى جليسه فيما لا يعنيه.

وعن أول خلة جاء قول الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عارٌ عليك إذا فعلت عظيما

وقال عبد الله بن العباس لبعض اليمانية: لكم من السماء نجمها، ومن الكعبة ركنها،ومن السيوف صميمها. يعني سهيلا من النجوم والركن اليماني، وصمصامة عمرو بن معدى كرب.

فهو هنا عمد إلى الإشارة إلى ما يوطد المشاعر، ويوثق العلاقات، وأتى بأمثلة تدعم جليل الشعور الإسلامي الإنساني فانتخابات المبرد التي يوردها تتوافق مع المعايير الخلقية، وتعكس الثقافة الإسلامية والمخزون الفكري العربي من خلال المرويات العربية ذات القيمة، والتي تعكس فكر صائب ورأي سديد، وبلاغة أسلوبية في تكثيف دلالي.

قال أبو العباس: قال بعض الحكماء: من أدب ولده صغيرا سُّر به كبيراً وكان يقول: من أدب ولده أرغم حاسده

وقال بعض الحكماء: ثلاث لا غربة معهن: مجانبة الريب وحسن الأدب، وكف الأذى.

وقال عمرو بن العاص لدهقان نهر تيرى [١]: بم ينبل الرجل عندكم ؟ فقال: بترك الكذب، فإنه لا يشرف إلا من يوثق بقوله، وبقيامه بأمر أهله، فإنه لا ينبل من يحتاج أهله إلى غيره، وبمجانبة الريب فإنه لا يعز من لا يؤمن آلا يصادف على سوأة، وبالقيام بحاجات الناس، فإنه من رجي الفرج لديه كثرت غاشيته ". **وهذا القول المثبت يدل على رجاحة عقل المبرد لأنه يحوى نزعة عقلية، تنبع من الإحساس بالواقع الاجتماعي وبإدراك أبعاد الشخصية السوية**، وقال بزرجمهر: [٢] من كثر أدبه كثر شرفه، وإن كان قبل وضيعا، وبعد صيته وإن كان خاملاً، وساد وإن كان غريبا، وكثرت الحاجة إليه وإن كان مقتراً. **وهذا الرقي التعبيري والأداء الأسلوبي جعل الجمع يلتف تلقاء الأدب داعين إلى تحصيله.**

وكان يقال: عليكم بالأدب فإنه صاحب فى السفر ومؤنس فى الوحدة، وجمال فى المحفل وسبب إلى طلب الحاجة.

وقال عمر بن الخطاب رحمه الله: من أفضل ما أعطيته العرب الأبيات يقدمها الرجل أمام حاجته. فيستعطف بها الكريم ويستنزل بها اللئيم. **وهذا القول دال على سعة بصر عمر، إذ أدرك دور الشعر في تقوية الروابط الاجتماعية.**

---

(١) الكامل جـ ١ صـ ٦٣ .

(٢) الكامل جـ ١ صـ ٦٥

وكان شعبة بن الحجاج [1] أو سماك بن حرب – (قال أبو الحسن: هو سماك بلا شك) إذا كانت له إلى أمير حاجة استنزله بأبيات يقولها فيه.

فالمبرد جمع تلك المشعثات ونظمها في جزئية واحدة، تُـرْدَف الأولى بالثانية ليجمع فضل الأدب، وأهميته وكيف دعى إلي تحصيله القدامى، وسار على هديهم المحدثون

– الاهتمام بالجانب الروحى والمادي

وقال محمد بن على بن الحسين: جميل التعايش والتناصف والتعاشر فى ملء مكيال، ثلثاه فطنة، وثلث تغافل. فلم يجعل لغير الفطنة نصيبا من الخير، ولا حظا فى الصلاح، لأن الإنسان لا يتغافل إلا عن شيء قد عرفه وفطن به.

مما يدل على الحصافة وشدة الوعى والفهم.

وقد مال هنا إلى الحديث عن الجانب الروحي عن صفات روحية نص عليها الدين، بتواجدها يصلح المجتمع، وتتآلف أجزاؤه

– الدقة في انتخاب الشواهد والمرويات المستشهد بها، فنتيجة لثقافته المستفيضة واطلاعه الواسع يقع على الشواهد المتوافقة لما يريد التعبير عنه وإثباته يسر وسهولة.

فيورد أقوالًا تجمع بين تحسين السلوك، وحسن الصياغة فتؤدى باستفاضة المعنى المقصود يقول:

(١) الكامل جـ ١ صـ٦٦ .

قال أبو العباس: قال الأحنف بن قيس: ألا أدلكم على المحمدة بلا مرزئة ؟ الخلق السجيح، والكف عن القبيح، ألا أخبركم بأدوإ الـــداء ؟ الخلـــق الـــدنئ، واللسان البذئ.

وقال الأحنف: ثلاث في ما أقولهن إلا ليعتبر معتبر:

ما دخلت بين اثنين حتى يدخلاني بينهما، ولا أتيت باب أحد من هؤلاء ما لم أدع إليه – يعني السلطان – ولا حللت حبوتي إلى ما يقوم إليـــه النـــاس. **وتتناثر النظرات الصرفية، واللمح النحوية في كتابه، فهى تأتي مزيلة للقول المنقول لا يعمد إليها وإنما تتسرب في ثبته وفق الخاطر؛ وتوائمًا مـــع مـــا يتحدث عنه.**

تكسر الحاء وتضمها إذا أردت الاســـم، وتفتحهـــا إذا أردت المصـــدر، أنشدنى عمارة بن عقيل لجرير.

قتل الزبير، وأنت عاقد حبوة قبحا لحبوتك التى لم تحلل !

ويقال فى جمع حبوة: حبا وحبا، مقصوران.

فقد فسر النثر بالشعر وألقى إشارة لغوية على بعض الكلمات فى عجالة تسيطر – غالباً – على تعقيباته. و قد تسبق إلي قلمه نظرة بلاغيـــة فقـــد تحدث عن أحد أجزاء البديع (اللف والنشر)

وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: ما أحسن الحسنات فى آثار السيئات، وأقبح السيئات فى آثار الحسنات، وأقبح من ذا وأحسن من ذاك، السيئات فى آثار السيئات والحسنات فى آثار الحسنات.

والعرب تلف الخبرين المختلفين ثم ترمى بتفسيرهما جملة ثقة بأن السامع يرد إلى كل خبره وقال الله ﴿:ﷻ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ﴾(١)

وقال رجل لسلم بن نوفل: ما أرخص السؤدد فيكم ! فقال سلم: أما نحن فلا نسود إلا من بذل لنا ماله، وأوطأنا عرضه، وامتهن فى حاجتنا نفسه. فقال الرجل: إن السؤدد فيكم لغال.وقد صدر الخبر " ما أرخص " بالاستفهام الذى لم يوضح أهو حقيقي أم خرج لمعنى مجازي " التعجب" وهناك تضاد بين (أرخص – غال)

ولسلم يقول القائل:

يسود أقوام وليسوا بسادة بل السيد المعروف سلم بن نوفل

وقال معاوية – رحمه الله – لعرابة بن أوس بن قيظى الأنصاري: بم سدت قومك ؟ فقال: لست بسيدهم، ولكني رجل منهم، فعزم عليه فقال: أعطيت فى نائبتهم، وحلمت عن سفيههم، وشددت على يدى حليمهم، فمن فعل منهم مثل فعلى فهو مثلي، ومن قصر عنه فأنا أفضل منه، ومن تجاوزه فهو أفضل مني. **والكامل... يحمل معاني وأفكار عظيمة، وإن كان لا يشار لها فى النص، لكن المبرد عمد إلى استكناه ما غمض فى النص " فالبناء لا يبحث فى محتوى الشيء وخصائص هذا المحتوى، بل يبحث فى علاقة الأجزاء أو العناصر بعضها ببعض، بقصد الكشف عن وحدة العمل الكلية، وليس معني ذلك أن النص من الداخل قد حوى الكثير من المعاني، واحتمل**

(١) – سورة القصص الآية رقم ٧٣ .

الكثير من الأفكار التى لا ظلال لها فى خارجه إن " الخارج والداخل هنا ليس على طرفي نقيض بقدر ما هما متكاملان من خلال وضعية نقدية معينة...(١)

فالمبرد عمد إلى تفسير ما أبهم من الكلام من خلال إيراد ما شابهه من الشعر وفسره فى صياغة جميلة، وأسلوب شائق، وحاول تفسير ما بين الأبيات التى أوردها من علاقات داخلية متوصلاً لتلك الرؤية قبل البنيويين " النص فى التحليل الداخلي فينتقل البنيويون فى دراسته من مستوى تأمل الصوت مخارج ونبرات، إلى مستوى تأمل الصرف أبنية وصيغاً واشتقاقات، إلى مستوى تأمل النحو تركيباً ومعاقبة، إلى مستوي تأمل الدلالة معجماً وطبيعة وعرفاً" (٢)

- **الجانب التاريخي:**

ظهر الجانب التاريخي عند المبرد جلياً ظاهراً في إيراده أخبار الطالبيين والأمويين والشيعة، ولكنه لم يوضح أن هذا الجانب سرداً تاريخياً بل أوردها على هيئة أخبار.

- **تعدد الموضوعات، واختلاطها بلا رابط، وحشد المعارف** من الظواهر الأسلوبية البينة في الكامل إيراد الأخبار دون رابطة بينها ثمة ظاهرة فى كتب الأدب والنقد فى العصور الأولي فقد يورد خبراً تاريخياً، ثم خطبة لأحدهم، وقد يورد أبياتاً لغرض ما مدح، أو رثاء، فخر، أو غزل، ثم يعود مرة أخرى لهذه الموضوعات فى غير هذا الترتيب، وهذا من أوجه الاتفاق بين الجاحظ والمبرد.

---

(١)- فى النص وقراءة النص د / محمد أحمد العزب صـ ٦٦ .

(٢) -المرجع السابق صـ ٦٧ .

وقد أورد نتفاً من أخبار متفرقة

خطبة الحجاج فـــي أهل العراق[١]

حيث أورد رأى الحجاج فى أهل العراق فى ثمانية أسطر، ثم عمد إلـــى تفسيره وتوضيحه مستعيناً بالتفسير اللغوي حيناً والتفسير الشعري حيناً آخر، وقد يضمن الحاشية حكاية حقيقة أو متخيلة.

من كلام ابن الأشعث حين ظهور الحجاج عليـــه [٢]

أورد كلام ابن الأشعث وتهوينه من شأن الحجاج، وقرنه بتعليق من أحد الحضور وإلقائه اللوم عليه لتقليله من شأن الحجاج دون أن يعقب هو على كلام هذا أو ذاك.وأحياناً أخرى يستفيض في التعقيب كما سيأتي فبعـــد أن حكي إعجاب عبد الملك بالجارية... أورد الآبيات التى جاءته فى كتاب عبـــد الرحمن ثم نص على اختلاف قافية أحد الأبيات [٣] كتاب صاحب اليمن إلـــى عبد الملك فى وقت محاربته ابن الأشعت [٤]

فما كان مخاطبة مباشرة أوردها تحت مسمي كلام، ومـــا كانـــت هنـــاك مراسلة أوردها تحت مسمي كتاب، وأورد خبراً بالتفصـــيل والشـــرح تحـــت عنوان الأعرابي يشكو حبيبته [٥] وقال أعرابى:

شكوت فقالت: كل هذا تبرما بحبى ! أراح الله قلبـــك مـــن حبـــى

---

(١) الكامل ج ٢صـــ ٢١٥

(٢) الكامل ج ٢ صـــ ٢١٧

(٣) صـــ ٢١٧ ، ٢٢٢

(٤) صـــ ٢١٩.

(٥) الكامل صـــ ٢٢٧ – ٢٢٨ .

فلما كتمت الحب، قالت: لشد ما صبرت وما هذا بفعل شجى القلب

وأدنو فتقصينى، فأبعد طالباً رضاها، فتعتد التباعد من ذنبى

فشكواي تؤذيها وصبري يسوءها وتجزع من بُعدى وتنفر من قربى

فيا قوم هل من حيلة تعرفونها ؟ أشيروا بها واستوجبوا الشكر من ربى

قوله:" كل هذا تبرما " مردود على كلامه، كأنها تقول له: أشكوتني كل هذا تبرما ! ولو رفع رافع " كلا " لكان جيدا يكون " كل هذا " ابتداء وتبرم خبره " وشَجِى " مخففة وفى الخلى مثقلة، وقياسه أنك إذا قلت فَعِلَ يفعَلُ فعَلاً، فالاسم منه على فَعِل نحو فرق يفرق فرقاً فهو فرق، وحذر يحذر حذراً فهو حذر، وبطر يبطر بطرا فهو بطر، فعلى هذا شَجِىَ يَشْجَى شَجَى فهو شَجٍ يا فتى كما تقول: هَوِىَ يَهْوَىَ هَوىً فهو هَوٍ يا فتى.

وقوله:

فيا قوم هل من حيلة تعرفونها

موضع " تعرفونها " خفض لأنه نعت لحيلة، وليس بجواب ولو كان هاهنا شرط يوجب جوابا لا يجزم، تقول: ائتنى بدابة أركبها، أي بدابة مركوبة، فإذا أردت معني: فإنك إن أتيتني بدابة ركبتها قلت: " أركبها " لأنه جواب الأمر، كما أن الأول جواب الاستفهام وفى القرآن ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم

وتزكيهم بها[1] ﴾أي مطهرة لهم، وكذلك: ﴿ أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً[2] ﴾

أي كائنة لنا عيداً، وفى الجواب: ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا ﴾[3] أي أن تركوا خاضوا ولعبوا وأما قوله ﴿:ﷻ ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾[4] فإنما هو فذرهم فى هذه الحال لأنهم كانوا يلعبون وكذلك: ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾[5] إنما هو (لا تمنن) مستكثراً فمعني ذا: هل من حيلة معروفة عندكم [6] وقد يضم أبياتاً بعضها إلى بعض تأتي تترا فى معني واحد)[7] وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب:

رأيت فضيلاً كان شيئاً ملففا فكشفه التمحيص حتى بدا ليا

أأنت أخى ما لم تكن لى حاجة فإن عرضت أيقنت أن لا أخا ليا !

فلا زاد ما بينى وبينك بعدما بلوتك فى الحاجات إلا تماديا

فلست براء عيب ذى الود كله ولا بعض ما فيه إذا كنت راضيا

فعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

(١) – سورة التوبة الآية رقم ١٠٣ .

(٢) –سورة المائدة الآية رقم ١١٤ .

(٣) ٠ سورة الزخرف الآية رقم ٨٣ .

(٤) – سورة الأنعام الآية رقم ٩١ .

(٥) – سورة المدثر الآية رقم ٦ .

(٦) الكامل جـ ١ صـ ٢٢٨

(٧) الكامل صـ ١٧٢ ، ١٧٤

كلانا غنى عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تغانيا

قوله: " كان شيئا ملففا " يقول: كان أمراً مغطى والتمحيص: الاختيار، يقال: أدخلت الذهب فى النار فمحصته أى خرج عنه ما لم يكن منه وخلص الذهب قال الله ﷻ:﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾[1] ويقال: محص فلان من ذنوبه.

وقوله:

أأنت أخى ما لم تكن لى حاجة

تقرير وليس باستفهام، ولكن معناه: أنى قد بلوتك تظهر الإخاء فإذا بدت الحاجة لم أر من إخائك شيئا وقال الله ﷻ:﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ﴾[2] إنما هو توبيخ وليس باستفهام وهو جل وعز يعلم بأن عيسى لم يقله.

وقال على بن أبى طالب رحمه الله: ثلاثة لا يعرفون إلا فى ثلاث، لا يعرف الشجاع إلا فى الحرب ولا الحليم إلا عند الغضب ولا الصديق إلا عند الحاجة. وقال عبد الله بن معاوية أيضاً:

أنى يكون أخا أو ذا محافظة من كنت فى غيبه مستشعرا وجلا

إذا تغيب لم تبرح تظن به سوءا وتسأل عما قال أو فعلا

(١) – سورة آل عمران الآية رقم ١٤١ .

(٢) – سورة المائدة الآية ١١٥ .

- **نشر الإبداع دون تحديد المبدع** ورد غير مرة أن يثبت المبرد أبياتًا أومواقف دون أن ينسبها لقائليها أو محدثيها مثل قوله [1] وقال آخر:

سأشكر عمراً ما تراخت منيتى أيادى لم تمنن وإن هى جلت

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

رأى خلتى من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلت

-الاهتمام بالدلالة النفسية للصفات الجسمانية

وقد أشار المبرد إلى الصفات الحسنه عند العرب فأورد أن العرب تمدح الطول يقول:[2] والعرب تمدح الطول، وتضع من القصر فلا يذكره منهم إلا محتج عن نفسه، ولا يمدح به غيره، قال عنترة:

بطل كأن ثيابه فى سَرحة يُحذى نِعال السبت ليس بتوءم

يقول: لم يشارك فى الرحم، وقال جرير:

تعالوا فقاتونا ففي الحكم مقنع إلى الغُر من أهل البطاح الأكارم

فإنى لأرضى عبد شمس وما قضت وأرضى الطوال البيض من آل هاشم

وقال حسان بن ثابت:

وقد كنا نقول إذا رأينا لذى جسم يعد وذو بيان

كأنك أيها المعطى بياناً وجسما من بني عبد المدان

(١) الكامل ج٢ صـ ١٧٦ ج ١ صـ ٣٠

(٢) الكامل جـ ١ صـ ٧٩ .

ويقال إن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب كان إلى منكب عبد الله، وكان عبد الله إلى منكب العباس، وكان العباس إلى منكب عبد المطلب.

وحدثني التوزى قال: طاف على بن عبد الله بالبيت، وهناك عجوز قديمة، وعلى قد فرع الناس، كأنه راكب والناس مشاة، فقالت: من هذا الذي فرع الناس ؟ فقيل: على بن عبد الله بن عباس فقالت: لا إله إلا الله، إن الناس ليرذلون عهدى بالعباس يطوف بهذا البيت كأنه فسطاط أبيض.

وحدثني على بن القاسم بن على بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس قال: كان يقال: صار شبه على بن عبد الله فى عظم الأجسام فى العليين – يعني على بن أمير المؤمنين المهدى المنسوب إلى أمه ريطة وعلى بن سليمان بن على.

ويروى أن رسول الله ﷺ – وهو الأسوة والقدوة – كان فوق الربعة، ولم يكن بالطويل المشذب، وكان إذا مشى مع الطوال طالهم. ولم يختلف أهل الحكمة والنظر من العرب والعجم أن الكمال فى الاعتدال، ولا يقال غير هذا عن حكيم وأبين ما فيه ما اختاره الله تعالي لنبيه محمد ﷺ.وقد يقال: الكيس فى القصر وقد قيل فى خبر قصير وكيده ومكره ما قد سار به المثل، واستغني عن الإعادة وهذا التعقيب الأخير يدل على أنه لا يكرر المشاع والمألوف ويكتفي بالإشارة إلى ما عرف وانتشر.

نجد الحديث عن السؤدد والسيادة والشرف تناثر ضمن أقوال الحكماء ثم أدخل فيه من غير جنسه. اللف والنشر وهو لون جمالي بلاغي نوه عليه.. وأشار لبعض التشكيلات اللغوية.

والمبرد لم يأخذ من العقد شيئاً على الرغم من وجوده فى عصره.

فالأبواب التي تعرض لها المبرد كثيرة ومتشعبة، ووردت في خيط غير منظوم بل طرحها كما اتفق وقد علق عليها د/ بدوى طبانه بقوله: إن الأبواب التى تعرض لها الكامل تعكس ثقافة المبرد وسعة إطلاعه لكن ذلك ظهر فى عرضه لبعض أصول الأدب وعالج بعض النواحي الفنية للنقد ثم يطرى على منهجه من الشرح والتعبير والتحليل ويقول إن تلك الخطوات هامه جدا للنقد والناقد لا تقل أهمية عن عملية إصدار الحكم يقول وليس إصدار ذلك الحكم على العمل الأدبي أو غيره من الأعمال ضرورياً أو خطيراً بالدرجة التى يتصورها أكثر الناس، فقد يكون ذك من أيسر ما يراد من الناقد كلفة، ومن أخفه عليه مئونة.**ولكن أهم من إصدار الحكم تلك الخطوات التى تسبقه من عرض النص، وتوضيحه، وتحليله، وتقسيمه إلى عناصر وأجزاء، وذلك ما يحتاج إليه القارئ أو السامع، لأن كلا منهما محتاج أولاً وقبل كل شيء إلى الفهم والإدراك، وهذا الفهم هو الذي سيثير انفعاله ويؤثر فى شعوره، ووجدانه، وسيكون إصدار الحكم بعد الادارك والشعور أيسر من اليسر بعد تهيئة الذهن والحس، وللناقد بعد ذلك أن يحتفظ برأيه لنفسه أو أن يعبر عنه إن كان من الذين يعنيهم إعلان ذلك الرأى لعامة الناس أو خاصتهم** " (١)

- **الاهتمام بالدلالة النفسية للأساليب العربية**

كذلك أيضًا توصل المبرد قبل المحدثين إلي أثر الأسلوب، وبوح الكلمات، ودلالة العبارات؛ على المتلقى، وإذا كانت الأن أبحاث تعقد عن أثر النص في المتلقين فإن المبرد تحدث عن الأساليب العربية؛ وتنوعها؛ وأهميتها؛ وكيف أن لكل أسلوب جماله وبهائه، وأن الأضداد – الإيجاز والإطناب– التلميح

(١) –دراسات فى نقد الأدب العربي صـ ٢٣٩ – ٢٤٠ .

والتصريح- المعنى الحقيقي؛ والمعنى المجازي إذا ما استخدمهم عالم بأسرارهم حسن كلامه، وتم مراده، وقد عنون ذلك بعناوين متعددة واستشهد فيه بأمثله متنوعة يقول:

وقال أبو العباس[1] من كلام العرب الاختصار المفهم والإطناب المفخم، وقد يقع الإيماء إلى الشيء فيغني عند ذوى الألباب عن كشفه كما قيل: لمحة دالة وقد يضطر الشاعر المفلق،والخطيب المصقع، والكاتب البليغ، فيقع فى كلام أحدهم المعني المستغلق واللفظ المستكره فإن انعطفت عليه جَنبتا الكلام غَطّتا على عواره وسترتا من شينه. إن شاء قائل أن يقول: بل الكلام القبيح فى الكلام الحسن أظهر، ومجاورته له أشهر، كان ذلك له، ولكن يغتفر السيئ للحسن، والبعيد للقريب [2]

وهو يشير إلى أن الشعراء العظام قد يستخدمون الكلمات السهلة والألفاظ الواضحة، مثل قول الحطيئة:

وذاك فتى إن تأته فى صنيعه إلى ماله لا تأته بشفيع

وكذلك قول عنتره:

يخبرك من شهد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وكما قال زهير:

على مكثريهم رزق من يعتريهم وعند المقلين السماحة والبذل

(١) -الكامل جـ ١ صـ ٢٧ .

(٢)-الكامل ج ١ صـ٣٠

ومما وقع كالإيماء قول الفرزدق:

ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل

فتأويل هذا أن بيت جرير فى العرب كالبيت الواهن الضعيف فقال: وقضي عليك به الكتاب المنزل: يريد به قول الله تبارك وتعالي: ﴿ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ﴾[1] ومن كلامه المستحسن قوله لجرير:

فهل ضربة الرومى جاعلة لكم أباً عن كليب أو أبا مثل دارم

- النقد التقيمي: ظهر في الكامل نتيجة لفصاحته وثقافته الموسوعية فقد ينظر في الصورة الأدبية فيشير إلى مواطن الضعف أو القبح فيها... وقد يقرنها بما يشاكلها أو يفضلها.

وقد عقب على ذلك د / إحسان عباس حين قال (وهذا رأى لم يحسن صاحبه نفسه استغلاله، لأن الكشف عن العيوب كان إحدى مهمات النقد الكبرى، وقد أدرك المبرد ما فى رأيه هذا من ضعف فرد على نفسه بأنه يسلم أن الكلام القبيح يبدو أشد قبحاً إذا وقع بين الكلام الجميل من حوله، فليست المسألة مسألة خفاء، وإنما مردها إلى اغتفار القبح من أجل الجمال) [2]

يقول المبرد: ومن أقبح الضرورة وأهجن الألفاظ وأبعد المعاني قوله:

وما مثله فى الناس إلا مملكاً أبو أمه حي أبوه يقاربه

(١) - سورة العنكبوت الآية رقم ٤١ .

(٢) الكامل جـ ١ صـ ٢٧ .

مدح بهذا الشعر إبراهيم بن هشام بن إسماعيل بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو خال هشام بن عبد الملك فقال:

وما مثله فى الناس إلا مملكاً

يعني بالملك هشاماً أبو أم ذلك المملك أبو هذا الممدوح ولو كان هذا الكلام على وجهه لكان قبيحاً وكان يكون إذا وضع الكلام فى موضعه أن يقول: وما مثله فى الناس حي يقاربه إلا مملك أبو أم هذا المملك أبو هذا الممدوح، فدل على أنه خاله بهذا اللفظ البعيد وهجنه بما أوقع فيه من التقديم والتأخير:

الوضوح في الأحكام النقدية وقد يرسل أحكاماً نقدية حادة وصريحة تدل على ذوق وبصر وفهم يقول.. تحت عنوان " لقيس بن معاذ " فى النسيب[1] وقال قيس بن معاذ أحد بني عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة – وهو المجنون – وحدثنى عبد الصمد بن المعذل قال: سمعت الأصمعى يثبته ويقول: لم يكن مجنونا، إنما كانت به لوثة كلوثة أبى حية.

ولم أر ليلى بعد موقف ساعة ببطن منى ترمى جمار المحصب
ويبدى الحصا منها إذا قذفت به من البرد أطراف البنان المخضب
فأصبحت من ليلى الغداة كناظر مع الصبح فى أعقاب نجم مغرب
ألا إنما غادرت يا أم مالك صدى أينما تذهب به الريح يذهب

هذا البيت من أعجب ما قيل فى النحافة.

(١) الكامل جـ ١ صـ ٢٣٣ – ٢٣٤ .

ومما يستطرف فى هذا الباب قول عمر بن أبى ربيعة:

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخصر

أخا سفر جواب أرض تقاذفت به فلوات فهو أشعث أغبر

قليلاً على ظهر المطية ظله سوي ما نفى عنه الرداء المحبر

ومن هذا الباب قول القائل:

فأصبحت فى أقصى البيوت يُعدننى بقية ما أبقين نصلا يمانيا

بقية بدل من الياء فى يعدننى بدل الإشتمال

تجمعن من شتى ثلاث وأربع وواحدة حتى كملن ثمانياً

يعدن مريضاً هن هيجن ما به إلا إنما بعض العوائد دائيا[1]

..... ومن الإفراط فيه قوله:

فلو أن ما أبقيت منى معلق بعود ثمام ما تأود عودها

الثمام: نبت ضعيف واحدته ثمامة، وهذا متجاوز كقول القائل:

ويمنعها من أن تطير زمامها

وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة ونبه فيه بفطنته على ما يخفى عن غيره وساقه برصف قوى واختصار قريب[2]

(١) الكامل جـ ١ صـ ٢٣٣ – ٢٣٤ .

(٢) الكامل جـ ١ صـ ٢٣٤

والمبرد يأتي بأبيات وينسبها لقبيلة القائل دون تحديد وقد يثني بنسبتها إلى قائله ويحدد الشخص المعني يقول: وقال رجل من بني عبس، يقوله لعروة بن الورد [1]

لا تشتمني يا بن ورد فإنني تعود على مالي الحقوق العوائد
ومن يؤثر الحق النؤوب تكن به خصاصة جسم وهو طيان ماجد
وإني امرؤ عافي إنائي شركة وأنت امرؤ عافي إنائك واحد
أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد[2]

وهو يشرح الأبيات ثم يعاود فيهم بتفسير الشرح وهذا الشرح قد يحوى الجانب الصرفى والجانب اللغوي قوله[3]:

" النؤوب " يريد الذي ينوبه، وكل واو انضمت لغير علة فأنت فى همزها وتركها بالخيار، تقول فى جمع دار: أدؤر، وإن شئت لم تهمز وكذلك النؤوب والقؤول لانضام الواو فأما الواو الثانية فإنها ساكنة قبلها ضمة وهي مدة فلا يعتد بها ولو التقت واوان فى أول كلمة وليست إحداهما مدة لم يكن بد من همز الأولي تقول فى تصغير واصل وواقد: أويصل وأويقد لابد من ذلك فأما وجوه فإن شئت همزت فقلت: أُجُوه وإن شئت لم تهمز قال الله ﷻ[4] ﴿وإذا الرسل أقتّت﴾[5] والأصل وقتّت، ولو كان فى غير القرآن لجاز إظهار الواو

(١) الكامل جـ ١ صـ ٢٣٤
(٢) الكامل جـ ١ صـ ٢٨ .
(٣) الكامل جـ ١ صـ ٥٢
(٤) الكامل جـ ١ صـ ٥٢ .
(٥) – سورة المرسلات الآية ١١.

إن شئت وقوله ﴿:ﷻ ما ووري عنهما ﴾ الواو الثانية مدة فلا يعتد بها ولو كان فى غير القرآن لجاز الهمز لانضمام الواو

وقد أردف تفسيرًا لكلامه حيث رأى ضرورة التنويه على ان الناحي هذا المنحى قد أخطأ وقولى: إذا انضمت لغير علة " فالعلة أن تكون ضمتها إعراباً نحو هذا غزو يا فتي ودلو كما ترى هذا مما لا يجوز همزه لأن الضمة للإعراب فليست بلازمة أو تنضم لالتقاء الساكنين فذلك أيضاً غير لازم فلا يجوز همزه نحو أخْشُوَا الرجل و:﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ﴾[1] و: ﴿ لترونّ الجحيم ﴾[2] ومن همز من هذا شيئا فقد أخطأ [3]

فقد استشهد بآيات الذكر الحكيم ليؤكد صدق كلامه وبلاغته.

قضية القدم والحداثة: كان المبرد من النقاد المنصفين فلم يقرظ القديم لأنه قديم أو ينتقص الجديد لحداثته بل مال إلى موقف توفيقى، وهنا أيضا يتفق والجاحظ في تلك النظرة بين القديم والحديث، وذلك يتضح من قوله (وليس لقدم العهد يفضل القائل، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب، ولكن يعطى كل ما يستحق)[4] وقد استشهد بالأدب الحديث رغمًا عن ميله الفطري للقديم- بسبب عمق دراساته اللغوية، وثقافاته النحوية، ونظراته البلاغية – فلم يغمط المحدثين حقهم وشهد لمن أصاب أنه أصابا وأورد كثيراً من أشعارهم في كامله، وعلل ذلك بأنه (يهدف إلى غاية عملية، يهدف إلى أن يخدم طبقة

(١) – سورة آل عمران الآية ١٨٦ .

(٢) – سورة التكاثر الآية ٦ .

(٣) الكامل جـ ١ صـ ٥٢ .

(٤) الكامل ج ١ صـ٢٩

المتعلمين، وخاصة من يهيئون أنفسهم لمستوى بلاغي من فئة الكتاب)[1] فالمبرد يستشهد على كلامه بما يؤيده سواء أكان القول لقديم، أو محدث.

(وليس لقدم العهد يفضل القائل، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ولكن يعطي كل ما يستحق ألا ترى كيف يفضل قول عمارة على قرب عهده:

تبحثتم سخطى فغير بحثكم نخيلة نفس كان نصحاً ضميرها
ولن يلبث التخشين نفساً كريمة عريكتها أن يستمر مريرها
وما النفس إلا نطفة بقرارة إذا لم تكدر كان صفواً غديرها

فهذا كلام واضح وقول عذب وكذلك قوله أيضاً:

بنى دارم إن يفن عمرى فقد مضى حياتى لكم منى ثناء مخلد
بدأتم فأحسنتم فأثنيت جاهداً وإن عدتم أثنيت والعود أحمد

الاستعانة فى الكلام:

في حديث المبرد عن الاستعانة وقع ثمة خلط بين الشعر والنثر فلم يفصل بين لحق الاستعانة بأحدهما بشكل بين

إذا كان المتكلم ضعيف فى حجته، غير متمكن من منطقه، فقد يلحقه البهر من المواجهة وقد لا يكون كذلك لكن يرتج عليه الأمر فيستعين عليه بمعينه، سواء أكان حركات يفعلها أو أقوال يقولها، خارج نطاق موضوعه، وقد عرف المبرد الاستعانة بقوله: هي أن يدخل فى الكلام ما لا حاجة للمستمع إليه، ليصحح به نظماً أو وزناً، وقد يصف الهيئة والحالة التى عليها الأديب،

(١) – تاريخ النقد الأدبي عند العرب صـ ٩١ .

ويوضح أن ذلك جزء مؤثر فى التواصل بينه وبين المتلقين يقول [1] وقد قال الشاعر يعيب بعض الخطباء فى شعر:

ملئ ببهر والتفات وسعلة ومسحة عثنون وفتل الأصابع

ثم أورد عدة أمثلة وأخبار تدور في فلك الذهول عند المواجهة؛ منها الشعر، ومنها النثر، مثل

وقال رجل من الخوارج يصف خطيبا منهم بالجبن وأنه مجيد لولا أن الرعب أذهله [2]:

نحنح زيد وسعل لما رأى وقع الأسل

ويلمّه إذا ارتجل ثم أطال واحتفل

ومما يشاكل هذا المعني، ويجانس هذا المذهب ما كان من خالد بن عبد الله القسري، فإنه كان متقدمًا فى الخطابة ومتناهيا فى البلاغة، فخرج عليه المغيرة بن سعيد بالكوفة فى عشرين رجلاً فعطعطوا به فقال خالد: " أطعموني ماء " وهو على المنبر، فعير بذلك، فكتب به هشام إليه فى رسالة يوبخه فيها سنذكرها فى موضعها إن شاء الله، وعيره يحيى بن نوفل فقال:

لأعلاج ثمانية وعبد لئيم الأصل فى عدد يسير

هتفت بكل صوتك: أطعموني شرابا ثم بلت على السرير

فهذا عارض وقال آخر يعيره:

بل المنابر من خوف ومن وهل واستطعم الماء لما جد فى الهرب

(١) الكامل ج١ صـ ٣٠

(٢) الكامل جـ ١ صـ ٣٠ .

وألحن الناس كل الناس قاطبة وكان يولع بالتشديق فى الخطب

وقد عمد إلى التفسير اللغوى لكلمة " بَهَرَ " التى وردت فى البيت، وكلما أورد شعراً عمد إلى تحليله بالشعر، وتفسير ما غمض فيه، واستعان بآيات قرآنية كريمة وعمد إلى تحليلها لغوياً وصرفياً ونحوياً، كل ذلك فى إطار تحليل النص... وهو هنا كمن توصل للبنيوية قبل الوصول إليها بقرون [1].

والمبرد هنا قد توصل إلى أهمية هيئة الخطيب، والمتحدثِ، لإحداث التواصل بينه وبين الناس، فينفذ كلامه إلى داخل قلوبهم، ويسرى فى عقولهم، وهو ما ينص عليه المحدثون الآن من أن الخطيب لابد أن يحوى قدرات خاصة، تؤهله ليحدث التواصل بينه وبين المتلقين فيمكنه ذلك من الإقناع، فلابد من هيئة حسنه وامتلاك لغة إعلامية قادرة على الإفهام وإحداث التواصل.

قضية اللفظ والمعنى:

من الموضوعات الهامة التى تحدث فيها النقاد والأدباء القدامي، قضية اللفظ والمعنى...وقد تحدث عنها المبرد فى كتابه فقال: ومما يستحسن لفظه ويستغرب معناه ويحمد اختصاره قول أعرابي من بني كلاب:

فمن يك لم يغرض فإنى وناقتى بحجر إلى أهل الحمى غرضان

تحن فتبدى ما بها من صبابة وأخفى الذى لولا الأسى لقضانى

وهو هنا لم يطنب القضية أو يسترسل فى الحديث عنها بل اكتفي بهذه الإشارة. وقد زين الشعر بذكر القرآن مفسراً له موضحاً أنه نهج منهجاً حسناً

(١) – وهذا دليل على أن المناهج الحداثية الغربية قد استقاها علماء الغرب من قراءة التراث العربي قراءة متفحصة .

لأنه يتبع منهج القرآن الكريم... يقول[1] يريد: لقضي على فأخرجه لفصاحته وعلمه بجوهر الكلام أحسن مخرج قال الله ﴿:ﷻ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ والمعني إذا كالوا لهم أو وزنوا لهم، ألا ترى أن أول الآية: ﴿ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون﴾[2]

فهؤلاء أخذوا منهم ثم أعطوهم وقال الله﴿:ﷻ واختار موسي قومه سبعين رجلا[3] ﴾ أي من قومه وقال الشاعر:

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به فقد تركتك ذا مال وذا نشب

أى أمرتك بالخير.

وقد يعنون الباب بعنوان ثم لا يستوفيه فقد عنون مما قيل فى الشباب وأورد قول النمر بن تولب. ثم أخذ يفسر الأبيات تفسيراً لغوياً وصرفياً يستشهد على توضيحه وقال النمر بن تولب:

تدارك ما قبل الشباب وبعده حوادث أيام تمر وأغفل

يسر الفتى طول السلامة والبقا فكيف يرى طول السلامة يفعل!

يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ينوء إذا رام القيام ويحمل

قصر " البقاء" ضرورة وللشاعر إذا اضطر أن يقصر الممدود وليس له أن يمد المقصور وذلك أن الممدود قبل آخره ألف زائدة، فإذا احتاج حذفها لأنها ألف زائدة فإذا حذفها رد الشيء إلى أصله ولو مد المقصور لكان زائدا فى الشيء ما ليس منه قال الشاعر – وهو يزيد بن عمرو بن الصعق:

---

(١) الكامل ج صـ ٣١

(٢) – سورة المطففين الآية ٢،٣ .

(٣) – سورة الأعراف الآية ١٥٥ .

فـرغتم لتمـرين السـياط وأنـتم يشـن عليكم بالفنـا كـل مربـع

فقصر " الفناء " وهو ممدود وقال الطرماح:

وأخـرج أمـه لسـواس سـلمى لمعفـور الضـرا ضـرم الجـنين

قوله: " وأخرج "يعنى رماداً، والأخرج الذي فى لونه سواد وبياض يقال: نعامة خرجاء. وقوله: " لسواس سلمى " فإن أجأ وسلمى طيئ وسواس سلمى: الموضع الذي بحضرة سلمى، يقال: هذا من سوس فلان ومن توس فـلان أي من طبعه وأمه يعني الشجرة التى هي أصـله. وقولـه:" لمعفـور الضـرا " فالضراء ما واراك من شجر خاصة والخمر، ما واراك من شيء والمعفـور: يعني ما سقط من النار من الزند. وقوله " ضرم الجنـين " يقـول مشـتعل، والجنين: ما لم يظهر بعد، يقال للقبر جنن والجنين: الـذي فـى بطـن أمـه والمجن: الترس لأنه يستر والمجنون: المغطى العقل، وسـمي الجـن جنـا لاختفائهم وتسمي الدروع الجنن لأنها تستر من كان فيها، وقصر " الضراء " وهو ممدود ومثل هذا كثير فى الشعر جداً.

وقوله: " ينوء إذا رام القيام " يقول: ينهض فى تثاقل قال الله ﴿ :ﷻما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة ﴾(١)

والمعني أن العصبة تنوء بالمفاتح ولشرح هذا موضع آخر:

وقال آخر:

أنوء ثلاثاً بعدهن قيامى

(١) – سورة القصص الآية ٧٦ .

ثم أورد أبياتاً وحديثاً نبوياً شريفاً لكنه لم يذكر الأبيات التى تدل على حسن الشباب وحبوته فى النفوس، أو التى تدل على ذم المشيب وتبغيضه إلى الناس، بل أورد أبياتاً قد تذم الشباب والصحة يقول[1] ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال:" كفى بالسلامة داء[2]"

وقال حميد بن ثور الهلالى:

أرى بصرى قد رابنى بعد صحة وحسبك داء أن تصح وتسلما

ولا يلبث العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

وقال أبو حية النميرى:

ألا حي من أجل الحبيب المغانيا لبسن البلى مما لبسن الليالیا

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا

وقال بعض شعراء الجاهلية:

كانت قناتى لا تلين لغامز فألانها الإصباح والإمساء

ودعوت ربى في السلامة جاهدًا ليصحنى فإذا السلامة داء

النقد التفسيري

تعرض المبرد لكثير من القضايا النقدية موجزاً مرة ومطنباً أخرى، فى ظل نشاط إنساني فكرى واضح

النشاط نوعان: إما أن يعمل الإنسان عملاً، أو يصنع شيئاً فأما فى العمل الأدبي... فيكون الحكم على الفعل نفسه، وأما فى صنع شيء فإن الحكم يكون

(١) الكامل جـ ١ صـ ١٧٦ .

(٢) – مسند الشهاب الجزء الثاني صـ ٣٠٢ .

على الشيء الذي صنع وأصبح له وجود محسوس، ومن هذا الضرب الأخير من النشاط البشرى يكون الفن ومن السهل الحكم على الفن إذا كان الشيء الناتج عبارة عن حذاء يلبس، أو قطعة من الخزف. ولكن كيف يكون الحكم إذا كان الشيء الناتج عبارة عن قصيدة أو صورة ؟ إن قيمة الشيء فى هذه الحالة لن تكون فى المادة التى يتألف منها ؟ ولا فى كيفية ترتيب تلك المادة بل قيمته فى الكيفية التى تؤدي بها المادة وترتيبها غرضاً خاصاً "[1] وقد ورد الجانب النقدي لديه في عدة مظاهر منها:-

- ارسال حكمًا نقديًا، ثم يلتمس ما يؤيده من القرآن والشعر وآراء السابقين[2]

وقد يعهد المبرد فيرسل قولاً نقدياً وحكماً سطحياً بلا خوض فى التفاصيل أو الدواعي وراء حكمه، ويستشهد بقول آخر ليدلك على صحة ما ذهب إليه[3]

وقال رجل من بني تميم:

ألبان إبل تغلبة بن مسافر	ما دام يملكها على حرام
وطعام عمران بن أوفى مثلها	ما دام يسلك فى البطون طعام
إن الذين يسوغ فى أعناقهم	زاد يمن عليهم للئام
لعن الإله تغلبة بن مسافر	لعنا يشن عليه من قدام

وهذا كلام فصيح جدا.

---

(١) - فصول فى الأدب والنقد د/رأفت حليم سيف صـ ٢٤١ مكتبه سعيد رأفت صـ ١٩٨١ .

(٢) سبق ذكر الأمثلة في سمات الأسلوب لديه بهذا البحث صـ

(٣) الكامل جـ ١ صـ ٥٣ - ٥٥ .

قوله:" يسوغ فى أعناقهم " يريد حلوقهم، لأن العنق يحيط بالحلق ويشبه هذا الاتساع فى الفصاحة لا فى المعني قول القطامي:

لم ترقوماً هم شر لأخوتهم منا عشية يجرى بالدم الوادى

نفريهم لهذميات نقد بها ما كان خاط عليهم كل زراد

لأن الخياطة تضم خرق القميص والسرد يضم حلق الدرع فضربه مثلاً فجعله خياطة.

قال أبو الحسن: روى أبو العباس:

وطعام عمران بن أوفى مثلها

ردا لهاء والألف على الألبان، وهذا لا نظر فيه، وروى أيضاً مثله، لأن الألبان تجرى مجرى اللبن فحمله على المعني وقد يجوز أن تجعل الألبان جمعاً فتذكر لتذكير الجمع. وروى أيضاً.

مادام يسلك فى الحلوق طعام

وروى القراء فى هذا الشعر:

إن الذين يسوغ فى أحلاقهم

وإنما كان ينبغي أن يكون: " فى أحْلُقِهمْ " كقولك: فَلْسٌ وأَفلْس، وما أشبهه ولكنه شبَّه باب " فَعْلٍ " بباب " فَعَلَ " كما قالوا: زَنْدٌ وأَزْنَادٌ وفَرْخُ وأَفْرَاخُ قال الحُطيئة لعمر بن الخطاب ﷺ:

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخٍ حمر الحواصل لا ماء ولا شجر

ففعلوا هذا تشبيهاً بباب فعل كما شبهوا فعلاً بفعل فى الجمع فقالوا جبل وأجبل وزمن وأزمن كما قال:

إنى لأكنى بأجبال عن أجبلها وباسم أودية حبا لواديها

فأتي به على الأصل وتشبيها بغيره على ما أخبرتك قال ذو الرمة[1]

أَمَنْزِلَتَى مَىّ سلام عَلَيكُمَا هل الأَزْمُنُ اللائِى مَضَيْنَ رَوَاجِعَ!

والباب " أزْمَانَ " كما قال رؤبة:

أزمان لا أدرى وإن سألت ما فرق بين جُمعةٍ وسَبْتِ

وروى أبو العباس البيت الأخير مقوى، وجعله نكرة، وهو قوله: " من قدام، كما تقول: جئتك من قبل، ومن بعد، ومن عل، وما أشبهه، كما قرأ بعضهم: ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾[2] كما تقول: أَولاً وآخراً ورواه الفراء " من قدام " وجعله معرفة وأجراه مجرى الغايات نحو: " قبل وبعد " كمال قال " طرفة بن العبد ":

ثم تفرى اللحم من تعدائها فهى من تحت مشيحات الحَزُم

وكما قال عتى بن مالك العقيلى، أنشده الفراء أيضاً:

إذا أنا لم أُوَمْن عليك ولم يَكُنْ لِقَاؤُكَ إلاّ مِنْ وراء وراء

فقد لجأ إلى التفسير الصرفي، واللغوي مستشهداً بروايات مختلفة، وآيات القرآن وهو هنا يفعل ما فعله القليل من النقاد يقول سيد قطب [3] وكان يقع أن يعلل الناقد حكمه فى بعض الأحيان ولكنه تعليل ساذج يتعلق بلفظة أو

(١) الكامل جـ ١ صـ ٥٤ .

(٢) – سورة الروم الآية ٤ .

(٣) النقد الأدبي أصوله ومناهجه سيد قطب صـ ١٢١ وما بعدها دار الفكر العربي .

بمعلومات حسية أو ما أشبه ولا يتعلق بالقيم الشعرية على كل حال [1] **وهذا النمط النقدي جاء بكثرة في كتابه.**

قال أبو العباس: قال رجل – أحسبه من بني سعد – يرثى رجلاً:

ومحتضر المنافع أريحي نبيل في معاوزة طوال

عزيز عزة في غير فحش ذليل للذليل من الموالي

جعلت وساده إحدى يديه وتحت جمائه خشبات ضال

ورثت سلاحه وورثت ذودا وحزنا دائما أخرى الليالي

قوله: " أريحى " هو الذي يرتاح للمعروف أي يخف له، ويقال: أخذت فلانا أريحية، أي خفة وحركة لفعل المعروف. والمعاوز: الثياب التى يتبذل فيها الرجل، وهي دون الثياب التي يتجمل بها، واحدها معوز قال الشماخ فى نعت القوس:

إذا سقط الأنداء صينت وأشعرت حبيرًا ولم تدرج عليها المعاوز

وقوله: " فى معاوزة " فزاد الهاء، فإنما يفعل ذلك لتحقيق التأنيث، لأن كل جمع مؤنث كما تقول فى جمع صيقل صياقل، وكذلك جوارب وجواربة، إلا أن أكثر الأعجمى يختص بالهاء وهو فى العربي جيد، وفى العجمى أكثر استعمال نحو المزاوجة، فإن كان منسوبا كان الباب فيه إثبات الهاء وتركها جائز نحو المهالبة والأحامرة وقالوا: السبابجة لأنه قد اجتمع فيه النسب والعجمة.

(١) الكامل جـ ١ صـ ٥٨ – ٥٩ – ٦٠ .

وقوله: " تحت جمائه " يعنى شخصه، والضال: السدر البرى وما كان من السدر على الأنهار فليس بضال، ولكن يقال له: عبرى. قال ذو الرمة:" عبريا وضالا ".

وقوله:

ورثت سلاحه وورثت ذودا

يصف قرب نسبه منه، والذود: القطعة من الإبل، وأكثر ما يستعمل ذلك فى الإناث، ويجوز فى السائر، ومنه قولهم: الذود إلى الذود إبل، ثم قال:

وحزنا دائما أخرى الليالي

كما قال الأول – وغبط بميراث ورثه من أحد أهله:

يقول جزء – ولم يقل جللاً إنى تزوجت ناعما جذلاً
إن كنت أزننتنى بها كذباً جزء فلاقيت مثلها عجلاً
أغبط أن أرزأ الكرام وأن أورث ذودا شصائصا نبلاً

قوله: " ولم يقل جللا " أي صغيراً، والجلل يكون للصغير ويكون للكبير، ومن ذلك قوله:

كل شيء ما خلا الله جلل

أي صغير، وقال لبيد فى الكبير:

وأرى أربد قد فارقنى ومن الأرزاء رزء ذو جلل

وقوله:" شصائصاً "، يعني حقيرة دميمة. وزعم التوزى أن النبل من الأضداد، يكون للجليل والحقير، واحتج بهذا البيت الذي ذكرناه قال: يريد هاهنا الحقيرة.

وقوله: " أزننتنى " أي قرفتني ونسبتني إليه يقال: فلان بكذا وكذا أي يسمي به، وينسب إليه، قال امرؤ القيس بن حجر

كذبت لقد أصبي على المرء عرسه وأمنع عرسى أن يزن بها الخالى

وفى معني قوله: " ورثت سلاحه " قول الشاعر:

يفرح الوارث بالمال إذا ورث المال ويبكي إن غضب

ومثله قول نعامة الفزارى: يا حبذا التراث لولا الذله

فصار على نفس منهج التفسير اللغوي مع الشرح والاستشهاد بآيات الله والآبيات الشعرية. وقد يورد الآبيات ويذكر المناسبة ثم يستفيض فى شرح الآبيات فى صفحات كثيرة (١)

قال أبو العباس: وكان قوم نزلوا ببني العنبر بن عمرو بن تميم، والقوم من بني ضبة فأغير فاستغاثوا جيرانهم فلم يغيثوهم وجعلوا يدافعونهم حتى خافوا فوتها فاستغاثوا ببني مازن بن مالك بن عمرو بن تميم، فركبوا فردها عليهم، فقال المكعبر الضبي فى ذلك:

أبلغ طريفًا حيث شطت بها النوى فليس لدهر الطالبين فناء

كسالى إذا لاقيتهم غير منطق يلهى به المحروب وهو عناء

وإنى لأرجوكم على بطء سعيكم كما فى بطون الحاملات رجاء

أخبر من لاقيت أن قد وفيتم ولو شئت قال المخبرون أساءوا

فهلا سعيتم سعى أسرة مالك وهل كفلائى فى الوفاء سواء

كأن دنانيرًا على قسماتهم وإن كان قد شف الوجوه لقاء

(١) -الكامل جـ ١ صـ ٦٩ – ٧٣ .

لهم أذرع باد نواشر لحمها وبعض الرجال فى الحروب غثاء

قوله:" حيث شطت بها النوى " معنى شطت: تباعدت، ويقال: أشط فلان فى الحكم إذا عدل عنه متباعداً قال ﷻ:﴿ ولا تشطط ﴾[1].

وقال الأحوص:

ألا يا قومى قد أشطت عواذلى ويزعمن أن أودى بحقى باطلى

ويلحينني فى اللهو ألا أحبه وللهو داع دائب غير غافل

والنوى: البعد ويقال: شطت بهم نية قذف، أي رحلة بعيدة

قال الشاعر:

وصحصحان قذف كالترس

وليس بمأخوذ من " نأيت " فى اللفظ، ولكنه مثله فى المعني وقوله:

فليس دهر الطالبين فناء

يقول: الطالب فى إثر طلبته أبداً.

ظاهرة الاستطراد: وقد يعمد فى شرح حكمة أو موعظة بإسهاب وإطالة قال[2] أبو العباس: حدثت أن صبرة بن شيمان الحدانى دخل على معاوية والوفود عنده فتكلموا فأكثروا فقام صبرة فقال: يا أمير المؤمنين، إنا حي فعال، ولسنا بحي مقال ونحن بأدنى فعالنا عند أحسن مقالهم. فقال: صدقت.

وحدثت أن أبا بكر ﷺ، ولى يزيد بن أبى سفيان ربعًا من أرباع الشام، فرقى المنبر فتكلم فأرتج عليه، فاستأنف فأرتج عليه، فقطع الخطبة، فقال:

(١) – سورة ص الآية ٢٢ .

(٢) الكامل جـ ١ صـ ٨٤ – ٨٧ .

سيجعل الله بعد عسر يسراً وبعد عىّ بياناً، وأنتم إلى أمير فعَّال أحوج منكم إلى أمير قوال. فبلغ كلامه عمرو بن العاص، فقال: هن مخرجاتى من الشام ! استحساناً لكلامه.

وقال عثمان بن عفان–رحمه الله– لعامر بن عبد قيس العنبري ورآه ظاهر الأعرابية: يا أعرابى، أين ربك؟ فقال بالمرصاد !

وقال قائل لعلى بن أبى طالب –رحمه الله–: أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض ؟ فقال على: أين سؤال عن مكان وكان الله ولا مكان[1]

وحدثت أن راهبين دخلا البصرة من ناحية الشام، فنظرا إلى الحسن البصرى، فقال أحدهما لصاحبه: مل بنا إلى هذا الذي كأن سمته سمت المسيح فعدلا إليه، فألفياه مفترشا بذقنه ظاهر كفه، وهو يقول: يا عجبا لقوم قد أمروا بالزاد وأوذنوا بالرحيل وأقام أولهم على آخرهم ! فليت شعرى ما الذي ينتظرون ؟

ونظر الحسن إلى الناس فى مصلي البصرة يضحكون ويلعبون فى يوم عيد، فقال الحسن: إن الله جعل الصوم مضماراً لعباده ليستبقوا إلى طاعته، فسبق أقوام ففازوا، وتخلف آخرون فخابوا، ولعمره لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه ومسئ بإساءته عن تجديد ثوب أو ترطيل شعر.

قوله: " ترطيل شعر " إنما هو تليين الشعر بالدهن وما أشبهه ويقال للرجل إذا كان فيه لين وتوضيع: رَجل رطل، والذي يوزن به ويكال يقال له: رِطل، بكسر الراء [2] فهو ينساب من معنى إلي معنى، ومن تفسير لغوي إلى

(١) الكامل جـ ١ صـ ٨٤ .

(٢) – الكامل جـ ١ صـ ٨٥ .

تفسير قد يبعد به عن موطن الاستشهاد، والاسترسال كما هو معروف كان سمة المؤلفات آنذاك نظراً لتشعب معلومات المؤلفين، وفيض معارفهم.

وكان الحسن يقول: اجعل الدنيا كالقنطرة تجوز عليها ولا تعمرها [1]

قوله:" القنطرة " يعني هذه المعقودة المعروفة عند الناس، والعرب تسمي كل أزج قنطرة، قال طرفة بن العبد:

كقنطرة الرومي أقسم ربها لتكتنفا حتى تشاد بقرمد

قوله:" حتى تشاد " يقول: تطلى، وكل شيء طليت به البناء من جص أو جيار. وهو الكلس فهو المشيد يقال:دار مشيدة، وقصر مشيد، قال الله ﴿ ﷻ ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾[2] وقال الشماخ:

لا تحسبني وإن كنت امرأ غرراً كحية الماء بين الطين والشيد

وقال عدى بن زيد العبادى:

شاده مرمراً وجلله كلسا فللطير فى ذراه وكور

والمقرمد: المطلى أيضاً، فمن ثم قال: " حتى تشاد بقرمد " فى معني حتى تطلى، ومن ذلك قول النابغة:

رابى المجسة بالعبير مقرمد

وقال الحسن: تلقى أحدهم أبيض بضا، يملخ فى الباطل ملخا ينفض مذرويه ويضرب أصدريه، ويقول: هأنذا فاعرفونى قد عرفناك، فمقتك الله،

(١) – الكامل جـ ١ صـ ٨٥ .

(٢) – سورة النساء الآية ٧٨ .

ومقتك الصالحون. قوله: " أبيض بضا " فالبض الرقيق اللون، الذي يؤثر فيه كل شيء.

وفى الحديث[1] أن معاوية قدم على عمر بن الخطاب رحمهما الله من الشام وهو أبض الناس، فضرب عمر بيده على عضده، فأقلع عن مثل الشراب أو مثل الشراك، فقال: هذا والله لتشاغلك بالحمامات، وذو الحاجات تقطع أنفسهم حسرات على بابك !

وقال حميد بن ثور الهلالى:

منعمة بيضاء لودب محول على جلدها بضت مدارجه دما

وقوله:" يملخ فى الباطل ملخاً " يقول مراً سريعاً، يقال بكرة ملوخ إذا كانت سهلة المر.

وقوله: " يضرب أصدريه وأزدريه " فإنما يقال ذلك للفارغ، يقال: جاء فلان يضرب أصدريه وأزدريه ولا يتكلم منه بواحد ويقال: فلان ينفض مذرويه وهما ناحيتاه، وإنما يوصف بالخيلاء وقال عنترة:

أحولى تنفض استك مذرويها لتقتلنى فهأ نذا عمارا

ولا واحد لهما، ولو أفردت لقلت فى التثنية مذريان لأن ذوات الواو إذا وقعت فيهن الواو رابعة رجعت إلى الياء كما تقول فى ملهى: ملهيان وهو من لهوت وفى مغزى: مغزيان وهو من غزوت، وإنما فعلت ذلك لأن فعله ترجع فيه الواو إلى الياء إذا كانت رابعة فصاعدا نحو غزوت فإذا أدخلت فيه الألف قلت: أغزيت وكذلك غازيت واستغزيت وإنما وجب هذا لانقلابها فى المضارع نحو يغزى ويستغزى ويغازى وإنما انقلبت لانكسار ما قبلها. فإن

(١) الكامل جـ ١ صـ ٨٦ .

قال قائل: فمال بال يترجى ويتغازى يكونان بالياء نحو: هما يتغازيان ويترجيان فإنما ذلك لأنهما فى الأصل: رجى يرجى وغازى يغازى ثم لحقت التاء بعد ثبات الياء، والدليل على ذلك أن التاء إنما تلحقه على معناه فقولك: مذروان لا واحد له لما أعلمتك وثبات الواو دليل على أن أحدهما لا يفرد من الآخر فلذلك جاء على أصله(١).

وعلى هذا المنوال سار الجزءانْ الأولانْ للكاملْ يورد أمثلة وأحاديثَ وأطرافاً من الكلام... قد لا يكون بينها رابط...

وقد صنف د / بدوى طبانه (٢) المبرد ضمن النقاد البيانيين الذين ينتصرون لجانب اللفظ على المعنى، وإذا كان النقد هو فن دراسة النصوص الأدبية والمتميز بين الأساليب المختلفة وأداة التميز هو الذوق الأدبي الذى يميز بين نص ونص، وأسلوب وأسلوب، ولفظة ولفظة(٣) فإن المبرد قد عرض لأساليب عدة ونصوصًا متنوعة.

ود / بدوى طبانه يقول إن المبرد كان ينتصر للقديم وشغف به وأعلى من قدره، ويراه النموذج الذى يجب أن يحتذي والمثال الذى يجب أن يقتفى حتى إنه صُنف ضمن النقاد " المحافظين المتزمتين وعاب عليه شغفه الزائد بالقديم حتى إنه قال بإن ذلك سبب تخلفه عن ركب أوائل النقاد ومشاهيرهم.

---

(١) الكامل جـ ١ صـ ٨٧ .

(٢) –دراسات فى نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث ط ٥ مكتبة الأنجلو .صـ٢٣٣

(٣) – المرجع السابق صـ ٢٣٤

ثم بعد ذلك يقول إن ولعه بالقديم الجيد لم يدفعه لإغفال الجديد الجيد، واغماطه يقول معلقاً على منهج المبرد... ويبدو المبرد فى رسمه هذا المنهج والتزامه فى ثوب المحافظين المتزمتين الذين يحاولون أن يصلوا جديد الأدب بقديمه وينظرون إلى هذا القديم على أنه الأصل الذي يحتذى، والصورة الجديرة بالمحاكاة والتقليد مع وجوب المحافظة على هذا الأصل والإشادة به وصرف العناية إلى حفظه، وفهمه، وصيانته ولولا ذلك الولوع بالقديم والشغف به لرأينا من مثله فى ثقافته الواسعة وعلمه الفضفاض آراء فى النقد وتذوق الأدب، ترفعه إلى المنزلة الأولى بين النقاد.

وإذا كان المبرد واحداً من أعلام المحافظين من العلماء الذين يغالون بالقديم فإنه لم يكن من أولئك الجامدين المتعصبين الذي يمجدون القديم لأنه قديم، وينتقصون الجديد لا لعيب فيه وإنما لأن قائليه كانوا من معاصريهم (١)) ثم يضرب مثلا ورد فى الكامل من اختلاف موقف الاصمعي من موقف المبرد، فالأصمعي استحسن بيتين وأثنى عليهما وحينما عرف أنهما لإسحاق غير حكمه وأبدل رأيه. يروى عن الأصمعي أنه لما أنشد قول إسحاق بن إبراهيم الموصلي:

هل إلى نظرة إليك سبيل ... يرو منها الصدى ويشف الغليل

إن ما قل منك يكثر عندى ... وكثير من تحب القليل

قال: هذا والله الديباج الخسروانى، فلما قيل له: إنهما لليلتهما حكم عليهما بالتكليف والفساد. ولم يكن للحكم بفسادهما من علة سوي أن الأصمعي عرف أنهما لشاعر محدث، ويؤيد ذلك حكمه بجودتهما قبل أن يعرف أنهما لإسحاق

(١) دراسات فى نقد الأدب العرب بدوى طبانه صـ ٢٣٤ .

ويعقب د/ طبانة ان هذا لم يفعله المبرد بل حكم بالجودة أو الرداءة على أساس الإجادة ونحى الزمن جانباً... يقول ألا ترى كيف يفضل قول عمارة بن عقيل على قرب عهده.

تبحثتم سخطي فغير بحثكم نخيلة نفس كان نصحاً ضميرها
ولن يلبث التخشين نفساً كريمة عريكتها أن يستمر مريرها
وما النفس إلا نطفة بقرارة إذا لم تكدر كان صفواً غديرها[1]

فهذا كلام واضح، وقول عذب وكذلك قوله أيضاً:

بني دارم إن يفن عمري فقد مضى حياتي لكم مني ثناء مخلد
بدأتم فأحسنتم فأثنيت جاهداً وإن عدتم أثنيت والعود أحمد

فالمبرد في منتخباته الشعرية دال على ثقافته العربية الأصيلة وذهنه المتقد

(١) – التخشين : إيغار الصدر ويستمر : يقوى ويشتد .

الفصل الثالث

موازنة بين البيان والتبيين والكامل في اللغة والأدب

إن الموازنة بين المُنْتَجَيْن نتاج للموازنة بين الناتجين

أولاً البيان والتبيين: ولد الجاحظ في عصر يمور بالفتن والقلاقل، ثم توفى والده فشب يتيمًا التمس الحماية في الكتب والعلم، فأقبل بشغف ينهل من فيض العلماء، تنوعت ثقافته وتعددت مصادرها، ونهل من التخصصات الموجودة: حديث ولغة، علم الكلام، وعلم الأدب، فشب ملمًا بالأصول والفروع، اشتد عوده ونمى عقله، وزادت الحركات السياسية والاقتصادية والصراع بين الأجناس بل بين الأخوات اشتد واحتد كما حدث مع الأمين والمأمون.

هجمت الثقافة الفارسية بهجوم الفرس وحاولت السيادة واعتلاء كل الثقافات بل ابتلاعها نتيجة لعلو كعب الفرس وتقلدهم مفاتيح الأمور وزمامها، وكما عاصر بزوغهم عاين أفولهم، فطمست البرامكة بأمجادها، وقد شغف بالأدب نص وناص، واهتم بالرواية والمروي، وبالتحقيق والتوثيق. كذلك تأثر بالثقافات اليونانية [(١)] وتسربت إلي إبداعه لكن لم تقف على سوقه مثل الثقافة الفارسية، إذ تأثره بها واضح بيّن من اليسر إدراكه وتحديد سماته، فملامح الفكر الفارسي ظهرت بوضوح، أما الفكر اليوناني فقد هضمها وأذابها في أتون ثقافاته المتعددة،

---

(١) قال د شكري عياد : إن تأثره بأرسطو ظهر في جزئيتين : إحدهما في كتاب الحيوان ، والأخرى في كتاب البيان والتبيين – أرسطوطاليس في الشعر، صـ٢٣١ ، بتصرف، الهيئة العامة للكتاب .

عصر الجاحظ: البيئة الجاحظية ضمت عناصر شتى زراعية، صحراوية، جبلية بحرية، وبدوية كلٌ له ثقافته ومعارفه وفنونه وقد احتك الجاحظ بما اتسم به من التبحر في العلوم المختلفة التى شاعت في عصره بكل ذلك، مما جعل مؤلفاته مستودعًا لها، تتزاحم فيه الأفكار والآراء والنظريات التى تنسب إلى حزمة منوعة من أصحاب التخصصات المختلفة من نحاة ولغويين أدباء ونقاد ورواة عرب أو غير عرب، اتسموا بسعة الثقافة وغزارة المعرفة، وخص الشعر بأنه لا يبصر به إلا من ألم بكل تلك الفنون، وأحاط بها علمًا، لذا ما إن يعرض لموضوع ما يكتب فيه حتى تتواتر عليه المعلومات، وتتزاحم المعارف، وتنثال على يراعه انثيالاً، ومعايير الجاحظ النقدية، ونهجه كان جديدًا لأن الحياة في عصره اتسمت بالتغيير والتجديد، والمعروف أن النقد يزكو ويشتعل أواره إذا ما جد جديد حرك الساكن. والحياة الأدبية كانت تمد جذورها إلى العصر الجاهلى واستنام المبدعون إلى هذه الوشائج في الهيكلة العامة للإبداع، حتى جاء عصر الجاحظ فزلزلت البيئة الثقافية نتيجة للتغيير الاجتماعي، والغزو الثقافي، فلم يجد المبدعون بُد من الانحناء أمام تلك التيارات أو التصادم بها، مما موَّر الحياة الإبداعية التي رصدها الجاحظ بعقله الواعي وفكره المتقد، فوجد أن البيئة تؤثر، والزمان وما ساد فيه يؤثر، وما امتلك المبدع قدرات على التغيير يؤثر بقوة في شكل الإبداع، ومنهجه، لكنه وقف ميالاً لكل ماهو عربي، ويفسر الشعر بالشعر.، وأسلوب البيان متناسب مع أسلوب الجاحظ إذ خلط فيه الفكاهة بالجد خوفًا على المتلقى من السأمة وخوفًا على نفسه من الخمول، إذ تراوح الأسلوب بين الجد والهزل مبعث في النفس النشاط، ودافع عنها السأم والملل، ويضخ في الروح التجدد، والملاحظ

أنه يورد الطرفة بلفظها الملامس للعامية (دون أن يعرفها بالفصحى، وذلك أطرى بالنادرة، وأملح وقعًا في النفوس عنده)[١] على الرغم من أن كتبه تندرج تحت الكتب الأدبية إلا أنها عجت بالقضايا النقدية، والسياسية، والدينية، واللغوية، والاجتماعية، التي عرضت في أسلوب شيق زُين بالمزواجة والتلوين الصوتي، أسلوب مشرق العبارة متآلف الدلالة حتى في موضوعاته العلمية الجافة (لتأثره بمعارف عصره) يعرضها بلفظ بهي وعبارة خلابة (لتأثره بسماته الشخصية وثقافته الذاتية)حتى علق عليه القدامى والمحدثون يقول المسعودى: وكتب الجاحظ تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان لأنه نظمها أحسن نظم ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ. وكان إذا تخوف ملل القاريء وسأم السامع، خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة" [٢]وقال شارل بللات " انه ليس هناك كاتب معاصر أو لاحق يشبه الجاحظ... وأضاف.. ظهر الجاحظ كمجدد حقيقي يجيد استعمال اللغة بمهارة فائقة. يجمع على ذلك أصدقاؤه وخصومه"[٣] ولا شك أن الجاحظ بفكره المستنير كانت ومضاته النقدية مجال اهتمام إذ مال إلي المذهب (البيانى) الذي يهدف إلي (التأنق في رسم الصورة الأدبية، ويبحث عن الجديد)[٤] الذى تزدان به تلك الصورة، وتزداد بهاءً

(١) دراسات في الأدب العربي العصر العباسي د محمد زغلول سلام صـ٤٥٤ منشأة المعارف

(٢) دراسات في الأدب العربي العصر العباسي، د محمد زغلول سلام ، صـ٤٥٦ـ

(٣) – دراسات في الأدب العربي العصر العباسي صـ ٤٥٦ وكذلك مروج الذهب للمسعودي .

(٤) دراسات في الأدب العربي من الجاهلية ..د بدوي طبانة صـ ٢٣٢

وجمالًا ووضوحًا، والفكر الاعتزالي، ومنهجه من اعتماد الجدل وسيلة للإقناع، استبعد الزمان حكمًا لا ترد له كلمة في التفضيل بين الشعراء معتمدًا (كما يقول العقل الإعتزالى: محض الحسن والقبح)[١] فى القضايا التي طرحها في بيانه وتبيينه، إذ كانت قضايا العصر الفكرية والثقافية، وكان طرح "البيان والتبيين" لها صدى لعقلية الطارح وما اتسم به فهو (رحب العقل والتفكير – على حد قول د بدوي طبانة – [٢] منهج البيان والتبيين.... يصعب تحديده وإجلاء سماته، لكن نستطيع القول: بغلبة الجانب أو المنهج التاريخى إذ شكل العمود الفقرى، وكانت باقى المناهج أعضاء له ؛ فقد استخدم المنهج الذاتي التأثري قسمة مع المنهج الفني، فتعرض بالنقد للعمل مبديًا فيه وجهة نظره، ومنوهًا على تأثيره على المتلقي، إضافة إي عرضه للعمل على الأصول والضوابط الفنية الخاصة به فإذا أجازته مدحه، وإذا عارضته قدحه، لكنه أعلى من النقد الموضوعي البعيد عن الهوى، فإذا كان الحب يعمي عن المحاسن؛ فإن البغض يعمى عن الحقائق، وليس يعرف حقائق مقادير المعاني، ومحصول لطائف الأمور إلا عالم حكيم أو معتدل المزاج – على حد قول د حنفى محمد شرف[٣]

وقد يرجع انتصاره للشكل " للصنعة أو الصورة " لأنه كاتب، والكتاب يريدون استدامت جذب المتلقي لمتابعة الأعمال بشغف واهتمام فلابد من تلاحق جمل خلابة، ولم يك اهتمامه باللفظ

(١) تاريخ النقد الأدبي د إحسان عباس صـ ٦٤٨

(٢) البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب صـ٨٨

(٣) النقد الأدبي عند العرب أصوله ومناهجه وقضاياه ٢٧٧

(الصنعة)دليل على إغفاله وتراخيه عن الاهتمام بالمعنى (المعاني مطروحة في الطرقات) لكنه قصد كما أن المعنى شريف فلابد أن يصب في قالب يوازيه شرفًا ورقيًا، فالسبك أو الصياغة هو انسجام اللفظ والمعنى رقيًا ورفعًة (إن حسن الكلام يزداد كلما كان المعنى أظهر، وذلك يدرك بوضوح الدلالة وحسن الاختصار، ودقة المدخل)[١] ثم تعرض لها مرة أخرى [٢] وهو يوضح رأيه القائم على أهمية مراعاة الجانبين اللفظ والمعنى، وقد تكلم الجاحظ عن مراعاة الكلام.. والكتاب دفاع عن العرب " وبيانهم، وعوامل نجاح الأدب وإخفاقه لكن لا يوجد به تحديد لمصطلح علمى أو تجريده، بل هناك اتساع في الدلالة "فالبيان والفصاحة والبلاغة " يستعملهم كمترادفات، وتظهر الواقعية في وصفه وفي تعبيراته، فهو يصف المرئيات والمسموعات كما تواترت له ويحكيها بألفاظها في بيانه حتى وإن خرجت على الذوق العام[٣]

لكنه حدد هدفه من نقل الواقع، وتصوير الحقائق، مما جعل عنايته بالتشبيهات والاستعارات قليلة، وتخلت الزخارف عن بيانه فالكتابة عنده

" ليست زخرفًا خالصًا يراد به إلى الوشي والحلي، وما يندمج في ذلك من صور وتشبيهات واستعارات، بل هى معان تؤدى في دقة، تفسر الوقائع والأحداث تفسيرًا لا تستره أسجاف الاستعارات والأخيلة، وليس معنى ذلك أن الجاحظ لم يكن دقيق التصوير، فإنه إنما عزف عن الأخيلة لما تضع أمام القاريء من مبالغات،

---

(١) البيان العربي صـ ٤٢

(٢) البيان والتبيي ج١ صـ ١٩٦

(٣) – البيان والتبيين ج٢ كلام النوكى صـ ٢٢٥–

أما بعد ذلك فإنه كان مصورًا عظيمًا، إذ كان يعرف كيف ينقل المشاهد بجميع تفاصيلها ودقائقها تسعفه في ذلك قدرة غريبة على الملاحظة، وهي قدرة جعلته يحسن التصوير من جهة، كما يحسن القصص من جهة أخرى[(١)]

وهو يعترف بأن الاستطراد مقصود في مؤلفاته هربًا من الملل، والاستطراد والتنقل بين الموضوعات من خواص تكوين البيان والتبيين كشأن سائر كتبه، وهذا الاستطراد طبع بالجذب والتشويق، إذ صيغ في عبارات اتسمت بالتلوين الصوتي ما بين جمل طويلة، وقصيرة بينها تناغم وتناسب، وكما اهتم بالتلوين الصوتي ما بين جمل قصيرة وطويلة اهتم بالتلوين العقلي، فلأنه شب في ظل عقلية المعتزلة و" أستاذها النظام" كان الجاحظ قادرًا على حشد الأدلة المتنوعة منتصرًا لرأيه، مقيم الحجة على غيره.

واستدلالاته تنوعت ما بين يونانية، وفارسية، وعربية، وإن كان للعرب النصيب الأوفر من: تتبع أخبارهم، وقص نوادرهم، والاحتجاج بإبداعهم وتقييمه، حتى (إن الإنسان ليخيل إليه كأنما سُخر العقل بجميع مقوماته للجاحظ، وهو يختار ما يشاء من هذه المقومات في رسائل " [(٢)]فجمال التفكير موازٍ لجمال الأداء والتعبير، وإن زاد الأخير في صياغته، فزادت أعماله بهاءً وجلاءً، وتبدت الصنعة الجاحظية البديعة، وما امتازت به من تجانس بين معنى عقلي دقيق؛ وموسيقى لفظ رشيق ؛ وترك أثرًا لا يمحى على الحس والشعور وعلى العقل والتفكير.

(١) - الفن ومذاهبه د / شوقي ضيف صـ ١٦٢

(٢) – المرجع السابق صـ ١٧٦

ثانياً الكامل في اللغة والأدب: حاز المبرد ثقافة لغوية عربيـــة أصـــيلة انسابت وسيطرت على كامله، وقد حظى الكامل بنصيب كبير من مســـماه إذ حوى كثير من التخصصات، وتشعب في إثبات عدة مجـــالات: فـــي اللغـــة والتاريخ والأدب، فقد تحدث عن قضايا اللفظ والمعنى؛ لكن سبب الاستحسان تشعب لديه فقد يكون الشعر جيدًا لشيوع معناه بين الناس، أو جزالـــة لفظـــه، وصحة معناه، أو لسهولته أو لغرابته، ولم يتوسع فـــي إعطـــاء مبـــررات أو ضرورات تكفل مخالفة القواعد، وقد وقف موقفًا توفيقيًـــا، فقـــد قبـــل شـــعر المحدثين كقبوله لشعر القدامى قائلا(هذه أشعار اخترناها من أشعار المولـــدين حكيمة مستحسنة يحتاج إليها للتمثيل – لأنها أشكل بالدهر وسيق من ألفاظهـــا في المخاطبات والخطب والكتب"[١] ولا شك أن ثقافته اللغوية، النحوية التليدة، جعلته يهتم بالكُتَّاب، ويربي فيهم ملكة التذوق الناتجة عن دراسة الشعر الجيد أقديم كان أو حديث، وقد حث على تنحية الزمان أيضاً – كالجاحظ– فهو ليس حكم بين المبدعين (وليس لقدم العهد يفضل القائل، ولا لحدثان عهد يهتضـــم المصيب، ولكن يعطى كل ما يستحق"[٢] وحينما تكلم عن السرقات تكلم عنها خالطًا بين الشعر والنثر والخطابة، أو يثبت شواهد نثرًا قد يقرنهـــا بالتفســـير والتوضيح وقد يكتفى بمجرد إثبات الأبيات، ولا شك أن تحديده لهدف الكتاب في صدره أبان عنه، وهو في نقده قد يميل إلى تلوين صوتى أيضاً إذ يـــأتي نقده في عبارات قصيرة مركزة يقول " ومما يفضل لتخلصه مـــن التكلـــف،

(١) الكامل ج ٢ صـــ١

(٢) الكامل ج٢ صـــ ٧٩

وسلامته من التزيد، وبعده من الاستثقال قول أبو حية النميري..) [1] وكلامه في السرقات إذ يرجعها للشعر أو للنثر ككلامه عن أبي العتاهية، وقد أجاد واستفاض في الحديث عن التشبيه وبين أنواعه، وقال إنه جاء بكثرة في كلام العرب ولو قال قائل (هو أكثر كلامهم لم يبعد)، فالمبرد قد عالج بعض القضايا الفنية، وأثبت ما يراه من أصول أدبية لكن نظرًا لأنه اتخذ منهجًا تعليميًا (لا يسأل المتلقي عن معنى ورد في الكتاب) فقد قام بخطوات نقدية محمودة.. عرض النص، توضيحه، تحليله، تقسيم عناصره، كما زخر الكامل بالنقد الموضوعي وهو (مذهب من مذاهب النقد المعترف بها ويمكن أن يسمى النقد التفسيري، أو النقد التوضيحي) إذ عرض الكتاب عمل الأديب ثم تناوله بالشرح والتوضيح، ثم وازن بين هذا الإبداع وإبداع أخر، في نفس المجال، ولكن: افتقد الكتاب المنهج العلمي المرتب الخطوات المتسلسل في سرد الجزئيات بعد الحصر، ثم التنظيم، والتقسيم، واستنباط القواعد الثابتة والقواعد المتغيرة " الاستثناء–والأقوال الضعيفة " كما سيطر الاستطراد مما هرَّأ نسيجه، وفك عرى سدته ولحمته، فصعب تقصي ما ورد فيه من نظرات صائبة (وهذا ما جعل إحصاء تلك الآراء صعبًا والإفادة مما تحتوي عسيرة) – على حد قول د بدوي طبانة –[2] ورأى البعض [3] إن الكتاب كتاب رواية إذ كثر فيه الأقوال المروية نسبة إلي غيرها من المواد فهو فيه (كثير من الشرح والتحليل، كثير من النقد والموازنة، وقليل من الكلام في عناصر الأدب،

(١) – الكامل ج١ صـ ٣٠

(٢) دراسات في نقد الأدب العربي صـ ٢٤٤

(٣) البيان العربي صـ ١٠٥

والطابع العام لهذا الكتاب هو أدب الرواية) وفي مكان أخر..(وفيه كذلك كثير من النقد الأدبي الذي يدل على ملكة المبرد وذوقه الأدبي، وتنبه حاسته الفنية، ولمحه أخذ المعاني وسرقتها، ومحاولة إخفائها،) والنقد المنتشر في الكامل قد يوصف بالطريف وقد يكون تليدًا؛ يقتفي فيه المبرد أثر القدامى لكنه اعتمد منهجًا جيدًا من تقسيم الأدب والأدباء، ويرى حتمية اتساع نظرة الناقد وعدم تسليطها على المسالب الجزئية، بل إرجاعها ولمها للجزئيات، والنظرة العامة للعمل – على حد قول د حنفي شرف [1] ولا شك أن الكتاب أصداء للثقافات المختلفة التى تزاحم وجودها في تلك الفترة.

(١) النقد الأدبي عند العرب ٣٠٤ بتصرف

الخاتمة

إن كتب التراث ملئ بما لذَّا وطاب فكراً، وظرفاً، علماً وبياناً وقد ألقيت الضوء علي بعض منها لأوضح أهمية كتب التراث وضرورة الاطلاع عليها. ولا سيما هذين الكتابين إذ تبدت الثقافات المتنوعة فيهما، وظهرت عقليتهما المستنيرة

فالبيان والتبيين: حوي الكثير من الفنون والمعارف وهو الأول الذى أخذ عنه باقي كتب التراث وإذا كان للجاحظ

القدح المعلي في هذا المنهج من التأليف، فالفضل للمتقدم إلا أن من جاء بعده بذلوا جهوداً مضنية ملموسة في تنظيم المادة الأدبية وحسن تنسيقها. فعمقت نظرتهم، واتسع استدلالهم.

والكامل: غلبت على المبرد فيه نزعته اللغوية وعلمه اللغوي والصرفى بدايا واضحان في ثنايا كتابه فقد يورد الخبر فى أسطر قليلة، ويعمد إلي تفسيره لغويا، وصرفيا، ونحوياً، ويحشد الشواهد، والأدلة في صفحات مطولة يهدف من ذلك أن يكون " هذا الكتاب بنفسه مكتفياً " وعن أن يرجع إلي أحد في تفسيره وعلي الرغم أنه سبق بالبيان والتبيين وعيون الأخبار.

وقد لاحظت أوجه اختلاف واتفاق بين هذين الكتابين التراثيين القيمين

ومن أوجه الاتفاق: ثقافة المؤلفين وسعة اطلاعهما تطل علينا جلية في أثناء مطالعة أعمالهما، تنوع مصادرهما ما بين مشافهة ومواكبة الحدث، والاطلاع علي مؤلفات السالفين والأخذ منها، وتنوع مادتهما ما بين شعر ونثر وقصة أو رواية حدث، وغزارة المادة المبثوثة في ثنايا هذه المؤلفات، واختلاف أماكنها مع تناسبها في كل مكان أثبتت فيه، فقد تأتي المادة شعراً أو

نثراً مثبته عند الجاحظ في باب معنون باسم صاحبه وأفردت في ذلك، وقد تأتى في الكامل متشعبة ومكررة، ونلاحظ وجود ظاهرة التكرار، فقد يكرر الخبر فى الكتاب الواحد مرة وأثنان وثلاثة، وأري أن ذلك يرجع لأسباب عدة منها: إطالة مدة التأليف فإن أحدهم لم يكن يجلس علي مؤلفه فلا يقوم حتى يفرغ... بل أن فترة التأليف قد تمتد أياماً وليالي وقد يلحق المؤلف فيها النسيان فيورد الخبر ناسيًا أنه سبق وأثبته، أو قد يري أن هذا الموضع له أنسب وبه أليق فيثبته ولا يعود فيحذفه من الموضع السابق. أو يرجع للاستملاء فقد يسهو على المملى والمستملى أنهما ذكرا هذا الخبر قبلاً، ويلاحظ حسهما الأدبي المتشابه فقلما تواجدت أبيات استحسنها أحدهما فأوردها،

ولم يوردها الأخر، وإن اختلفا في مكان إثباتها ووضعها.، وقد أكثر كلاهما من ذكر الخطابة وضرب أمثلة لها، وذكر البيان والبلاغة.

أوجه الاختلاف علي الرغم من تواجد خيوط قوية ضمت كتب التراث جميعاً ووضعتها في مكانها اللائق حتى قيل إن دواوين الأدب أربع البيان والتبيين، وأدب الكاتب، الكامل، والنوادر لأبي علي القالي وغيرها تبع لها... إلا أن ذلك لم يمنع التنوع فيما بينها. وذلك عائد لاختلاف شخصيات المؤلفين، ومناصبهم، وظروف حياتهم، والأحداث التي شهدوها وقربهم من الأحداث الجسام المؤثرة في الأمة أو بعدهم عنها.. كل ذلك أعطى مؤلفاتهما طعوماً مختلفة ومذاقات متعددة.

فالجاحظ: بتوجهه الأدبي... وفكره الاعتزالي... أفرد خبراً لواصل ابن عطاء أثنى فيه علي ثقافته الواسعة وغزارة

مفرداته اللغوية، وقد يعنون مادته مكتفياً بكلمة " باب أخر " ويلاحظ طول العنوان عند الجاحظ، وفصل المادة بعضها عن بعض، وإسباغ عناوين متعددة ومتنوعة، ولكن من الممكن جمعها جميعا تحت عنوان واحد.

المبـــرد: ذلك العالم اللغوي الكبير لم تترك ثقافته اللغوية له متسعا يتحدث فيه عن الجانب الأدبي باسهاب مثل نظائره، لكن ساهم بجهد لا ينكر وإن كان النظرة اللغوية، والرؤية البلاغية، والثقافة النحوية، أظلوا ومضاته المعروضة، وآراءه النقدية الثاقبة وقد اتضح في مؤلفه

سمتان رئيستان... المادة التاريخية.. كثيرة في مؤلفـــه، غلبـــة الجانـــب اللغوي والصرفى علي مادته تفسيراً وتوضيحاً.

ونلاحظ أن أساليب الأديبين؛ انبثقت عن شخصيتهما فحملـــت ســـماتهما الشخصية وألقت الضوء علي الأجواء الاجتماعية التي شبا في ظلها، وقد تأثرا بقضايا عصرهما النقدية والأدبية وعرضا لهـــا مؤيـــدين أو معارضـــين، أو عارضين منوهين عليها كقضايا فكرية كذلك تـــأثرا بـــالأجواء الاجتماعيـــة السائدة، لذا نجد ظلالاً لعلماء الكلام والجدل في أسلوب الجاحظ. وسيطر منهج النحاة وبرزت الآراء الفقهية، واللغوية والبلاغية في أسلوب المبرد،

وتبقي هذه الكتب وغيرها من كتب التراث علامات مضيئة تلقي الضـــوء علي العصور السابقة وتوضح الرؤى الفكرية والأساليب التعبيرية التي كانت سائدة بالإضافة إلي إنها تظهر عقلية مؤلفيها ونضجهما الفكرى.

من نتائج البحث

إن البيئة بما تحويه من معالم طبيعية، وأنشطة بشرية، ورؤى عقلية تصبغ قاطنيها بصبغتها، وتساهم لحد كبير في تحديد وجهتهم وتعيين دربهـــم الـــذى

يسلكوه، الغريزة أو الصفات الشخصية هى المانحة للعمل التفرد والتميز إذ يكون مرأة عاكسة لما قر في وجدان وفكر صاحبه (توجه الجاحظ أدبي لأنه أديب؛ أما المبرد فتوجهه نحوي لأنه رجل لغوي)، العصر بأحداثه السياسية، وتوليفته الاجتماعية، وتوجهاته السياسية شكل مدادًا لا ينضب ومادة ثمينة تمد المؤلفين بما يحتاجا من أدلة وبراهين لما يريدون، البيان والتبيين له فضل التقدم والسبق، واتسم بحشد طرائف ومعارف آداب وفنون غلب عليها الاستطراد والتشعب وهو سمة من سمات التأليف في ذلك العصر، والكامل تعرض لكثير من القضايا التى وردت في البيان، وزاد عليها قضايا أخرى لم ترد وربما ذلك لأنها لما تكن مطروحة في عصر الجاحظ بنفس القوة والوضوح الذى وجدت به في عصر المبرد " السرقات الشعرية ".،الكتابان قطعة من الكاتبين عكست ثقافتهما ونهجهما في التأليف، وطريقتهما في الإثبات والاستشهاد. غلبت السمة الشخصية للجاحظ على مؤلفه من التفكه والظرف. بينما الجدية والموضوعية سيطرتا على الكامل وهما من خواص تكوينه. لكن أصدأ الثقافات المنوعة والأفكار المنقحة ظهرت في طى الكتابين وانتخاب الأمثلة.

من المصادر والمراجع

١. البيان والتبيين للجاحظ مكتبة الخانجي ت د عبد السلام هارون ٤ج

٢. الكامل في اللغة والأدب للمبرد دار الفكر العربي ت محمد أبو الفضل إبراهيم ٢ج

٣. أصول النقد الأدبي د / طه أبو كريشه لونجمان للطباعة والنشر

٤. أصول فى الأدب والنقد د/رأفت حليم سيف مكتبة سعيد رأفت ١٩٨١.

٥. – البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب، ط ٤مكتبة الانجلو المصرية

٦. تاريخ النقد الأدبي عن العرب نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجرى د / إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع ١٩٩٣.

٧. سوانح وآراء فى الأدب والأدباء د / بدوى طبانه الشركة المصرية العالمية للطباعة والنشر ١٩٩٧

٨. دراسات فى نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث د / بدوى طبانه مكتبة الأنجلو المصرية ط٥

٩. دراسات في الأدب العربي العصر العباسي دمحمد زغلول سلام منشأة المعارف

١٠. في النص وقراءة النص د/ محمد أحمد العزب

١١. الفن ومذاهبه في النثر العربي د شوقي ضيف دار المعارف ط٦

١٢. الفن ومذاهبه في الشعر العربي د/ شوقي ضيف دار المعارف ط ٦.

١٣. قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث د / محمد زكى العشماوى الهيئة المصرية العامة للكتاب طـ ٣ سنه ١٩٨٧م.

١٤. البداية والنهاية ابن كثير طبعة دار التأليف الإسلامية.
١٥. الجاحظ معلم العقل والأدب – شفيق جبري.
١٦. معجم الشعراء للمرزباني تحقيق فاروق أسليم –عبدالستار فراج ط دار صادر ٢٠٠٥
١٧. النقد الأدبي أصوله ومناهجه سيد قطب ط –دار الفكر العربي
١٨. مروج الذهب للمسعودي
١٩. أرسطو طاليس في الشعر ط الهيئة العامة للكتاب.
٢٠. عن كتاب الكامل تحقيق محمد أحمد الدالي – مؤسسة الرسالة ط٢ ١٩٩٣ م
٢١. مسند الإمام أحمد
٢٢. تهذيب اللغة للأزهري ط دار الكتب العلمية.
٢٣. صحيح مسلم بشرح النووي.
٢٤. سنن ابن ماجه – كتاب الديات
٢٥. مسند الشهاب المسمى (الشهاب من الأمثال والمواعظ والآداب) ط دار الكتب العلمية
٢٦. فصول في الأدب والنقد د/ رأفت سليم – مكتبة سعيد رأفت ١٩٨١ م.